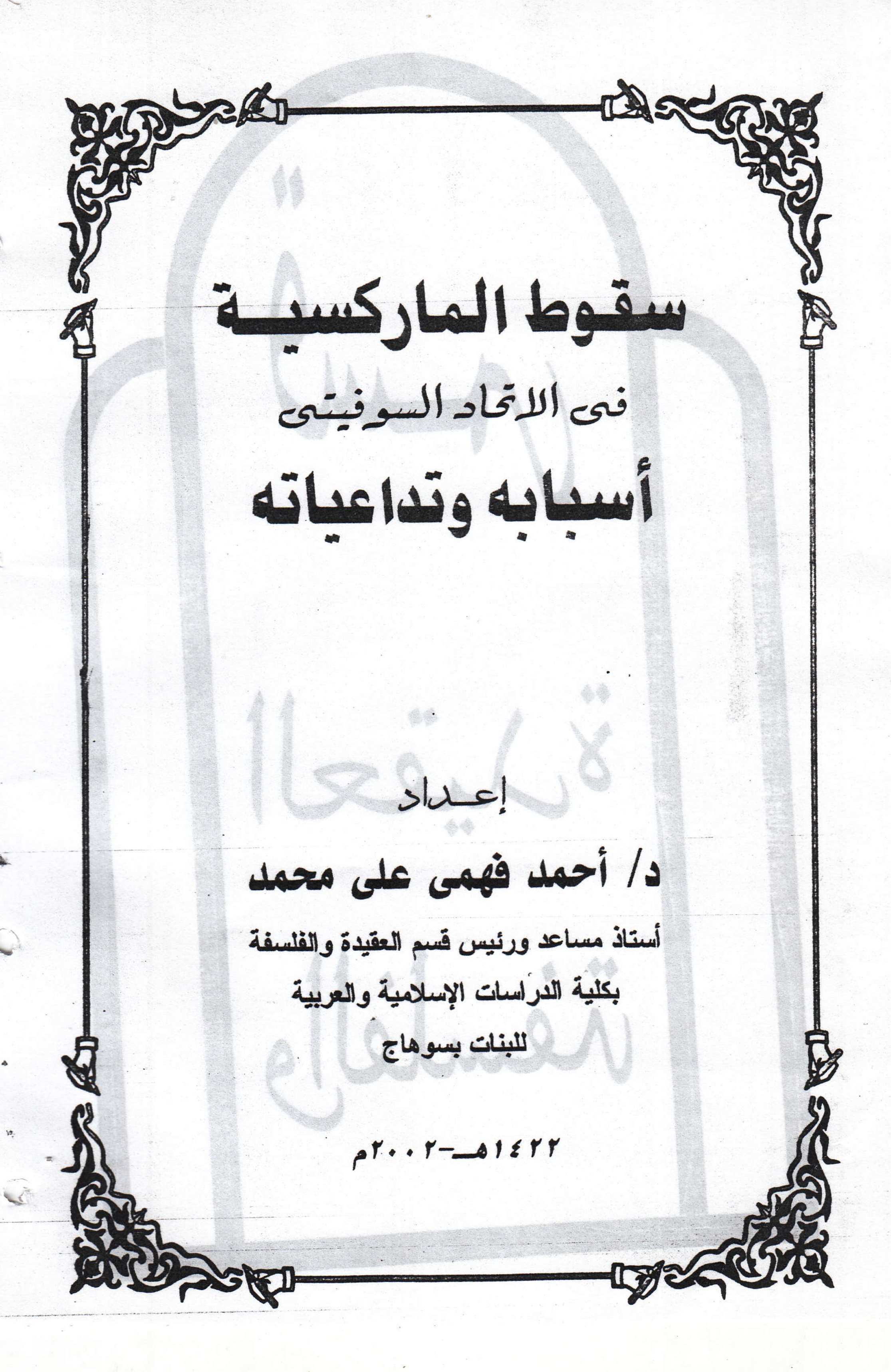


سقوط الماركسية

فى الاتحاد السوفيتى

أسبابه وتداعياته

إعداد

د/ أحمد فهمى على محمد

أستاذ مساعد ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بسوهاج

١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وأشكره سبحانه وتعالى أن هيأ لى الفرصة لأشارك بقلمى وفكرى فى الدفاع عن عقيدتنا وقيمنا، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبى الأمى الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

فإن التصدى للمذاهب الفكرة الهدامة رسالة من أخطر رسالات الدعوة إلى إصلاح ما فسد فى مجتمعاتنا الإسلامية، ثم حمايتها من الآفات الخبيثة التى تبذرها هذه الجماعات السرطانية من كذب ونفاق وخداع وإباحية وإشراك بالله وكفر بأنبيائه ورسله، هذه التيارات والأفكار التى تتبناها وتعتنقها القوى المعادية للإسلام تريد بها أن تطفئ نور الله وتحاول أن تخرج المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وأن تدخلهم فى دوامة الفكر البشرى ليتسنى لهم بذلك الهيمنة والسيطرة على العالم الإسلامى خاصة، والقضاء عليه.

نعم الإسلام اليوم يمر فترة قاسية إذ تهب عليه من الشرق والغرب معاً تيارات إلحادية ومذاهب مادية وأفكار هدامة وتعاليم باطلة.

ولقد ظهرت نظريات كثيرة ودعوات متعددة فى العصور الأخيرة تتحدى صلاحية الإسلام باسم العلم الحديث وتدعى أن تصورات الله والدين محض خديعة، ولا حقيقة وراءها.

ومن أبرز تلك التيارات (الفكر الماركسى) الـــذى نتعـرض لــه بالدراسة فى هذا البحث دراسة علمية منصفة بغية الكشف عـــن زيفــه ومجافاته للقيم الإنسانية والمثل العليا.

لهذا أردت أن أقدم فى هذا البحث الموجز الحقيقة كما ينبغـــى أن تكون موضحاً أهم ما تحتويه الماركسية من ضحالة الفكـــر ومجافاتـــها للإنسان ليقف طلاب الحقيقة وعشـــاق المعرفـــة علـــى حقيقـــة الفكـــر الماركسى حتى لا ينخدع شبابنا المسلم بالشعارات البراقـــة والعبـــارات المموهة والكلمات المعسولة التى يقدم بها الفكر الماركسى إلـــى شـــبابنا المسلم، ليتضح لهم الحق من الباطل والغيث من الثمين، وليعلمـــوا أنـــه مهما ارتفعت راية الباطل فسوف تسقط يوماً، عندما يعود أصحاب الحق إلى حقهم.

وهذا ما أثبته الواقع وسطره التاريخ لقد سقطت الشـــيوعية بيـــن عشية وضحاها، وسوف نوضح الأسباب الحقيقية لسقوط الماركسية.

وقد رأيت من المناسب أن أمهد بكلمة موجزة عن حيـــاة أقطـــاب ومؤسسى المذهب. لأن فهم المذهب يستلزم بالضرورة التعرف الدقيـــق على حياة صاحبه والظروف التى لازمت هذه الحياة فتـــأثرت بـــها أو أثرت فيها، وسأكتفى هنا بالحديث عن كل من (كارل ماركس) و(فردريك انجز) باعتبارهما الدعامة الأساسية للفكر الماركسى.

أولاً- كارل ماركس:

ولد (كارل ماركس) فى ٥ مايو ١٨١٨ فى مدينة (تريف) بألمانيا من أسرة يهودية برجوازية وتوفى فى لندن سنة ١٨٨٣م فعاش بذلك نحو من خمس وستين سنة. أما والده ويدعى "هرشل" فقد كان يهودياً من رجال الدين اليهودى وجده كذلك، أما والدته فتنحدر من أسرة هولندية من رجال الدين اليهودى هاجرت من هولندا إلى المجر[١].

وكعادة اليهود فى كل زمان ومكان من حبهم للمادة وجمعها من أى مصدر وتكديس ثروات المجتمع فى أيديهم، فقد أثقلوا المجتمع الألمانى خاصة والمجتمع الأوربى عامة بالديون والربا، وعجز المجتمع عن سداد هذه الديون وفوائدها، الأمر الذى ولد عند الناس سخط عام لليهود، مما دعى "هرشل" وأسرته إلى الارتداد عن اليهودية رغم عراقتهم فيها إلى دين المجتمع الذى يعيشون فيه "المسيحية" لكى يبتعد وأسرته عن نقمة المجتمع وسخط الناس.

وقد كان تحول الأسرة من اليهودية إلى المسيحية بهذه البساطة أثر كبير على ماركس خاصة وأنه كان فى مرحلته الأولى لتكوينه العقلى فقد كان سنة ستة أعوام فقط، الأمر الذى ترتب عليه بعد ذلك نظرته إلى الدين على أنه انعكاس للضرورات الاقتصادية فى المجتمع كرد فعل لما اختزله عقله من تحول الأسرة اليهودية إلى المسيحية لضرورة اقتصادية[٢].

---

(١) الفكر الاشتراكى تأليف بول لويس ترجمة وتقديم عبد الحميد الدواخلى.

(٢) الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الإسلام، د/ عبد الجليل شلبى ص٥٨ – ط دار الشروق.

وكان كارك ينادى بين لداته وأترابه باسم أضيف إليه هو "مــــور" كما يسمى بالعنق العجوز أى الغليظ.

وقد كان هذا التحول فى دين الأسرة مأساة فى حياة ماركس يقــول الدكتور/أبو العلا فقد غير والده "هرشل" ديانته اليهودية وخلعها كما يخلع المرء ثيابه وتحول إلى المسيحية واختار المذهب "البروتستانتى" مذهباً له ثم غير اسمه إلى "هيزج" وتتوالى الأيام والطفل يتابع هذا ويختزله فـــى شعوره ووجدانه حتى إذا ما امتلأ الكيل فاضت نفسه تتضح بما فيها مــن طفح السموم.

وتلك قمة المأساة فى حياة ماركس لا لأن أباه غير ديانته وديانـــة آبائه وأجداده وتحول إلى المسيحية؟ ولكن لأن هذا التغيير لم يكن عـــن حرية اعتقاد وإيمان صادق بالمسيحية وإنما كان مبعثه البحث عن المــال والمنصب والهروب من الديانة المضطهدة والانتساب إلى الديانة السائدة فى ألمانيا، وتلك أدنى درجات الانحطاط النفسى والخلقـــى أن يتجــرد الإنسان من دينه ويبيعه من أجل المال والمنصب.

ولك أن تتصور ما ينعكس على صفحة شعور طفل يـــرى أبويـــه وهما ينسلخان عن دينهما دون أجدادهما لا من أجل الاعتقاد فى غيره ولكن من أجل المال، ثم لك أن تتصور قيمة الدين فى نظر هذا الطفل[١].

وهكذا نشأ ماركس فى أحضان هذه الأسرة المنافقة التى غـــيرت دينها واسمها وانتماءها وانخلعت من مبادئها من أجل العيش والحياة.

---

(١) الماركسية بين الدين والعلم، د/ جميل محمد أبو العلا ص٧، ط/ مطبعة الأمانة بالقاهرة.

دراسته:

أفسدت الأسرة بالتدليل حياة ماركس العلمية كما أفسدت حياته الروحية من قبل وانعكس ذلك عليه فكان طالباً مهملاً فى دراسته، ولقد التحق بالتعليم فى مدارس ألمانيا الابتدائية والثانوية، وكان فى مدرسة ثانوية من مدارس الجزويت مكث بها خمسة أعوام، وكان لأبيه الفضل فى توجيهه إلى الفكر الفلسفى فى هذه المرحلة، كما درس له شيئاً من الأدب الكلاسيكى، ثم دخل جامعة بون، ثم جامعة برلين، وكان أبوه يريده أن يدرس القانون، ولكنه بعد فصلين دراسيين تحول إلى دراسة الفلسفة ثم تركها ليدرس تاريخ الاقتصاد، ومع عجزه عن مواصلة الدراسة القانونية أو الفلسفية ظهرت له فى سن مبكرة مقالات جيدة فى أسلوبها وأفكارها، ولم يكن فى جامعته حميد السيرة نظراً لسلوكياته الشاذة مما اضطر الجامعة إلى فصله منها.

وفى عام ١٨٤١م قدم إلى جامعة "جين" بحثاً فى الفلسفة الإغريقية القديمة كان موضوعه "ديقراطس وأبيقور" وكانت هذه الجامعة إذ ذاك تكتفى بأن تقرأ البحوث التى تقدم إليها ثم تمنح صاحبها درجته العلمية من غير أن يحضر إليها ليناقش فى بحثه وفكرته، وهو نظام قديم ثبت فساده وأقلعت الجامعة عنه، بعد ذلك أرسل كارل بحثه بالبريد ثم تلقى شهادة الدكتوراه بالبريد أيضاً[١].

---

(١) الشيوعية والشيوعيون، د/ عبد الجليل شلبى، ص٦٠.

وأقام ماركس فى "جينا" ليعمل معاوناً "لأرنولد روج" فى مجلتــــه التى كانت تتبنى المذهب "الهيجلى" والتى كانت تسمى "الكتاب الســنوى" غير أن صاحبها اضطر للسفر من "جينا" إلى "ساكسونيا" ثم إلى سويسرا ليؤسس مجلة أخرى سميت نبذ فلسفية.

أما ماركس فقد رأس تحرير صحيفة تسمى "ريتش جازيت" وكانت صحيفة تدعو للاشتراكية بتطرف، الأمر الذى ترتب عليه أن أصــدرت الحكومة الألمانية قراراً بإغلاقها ونفى ماركس خارج البلاد فانتقل إلـــى باريس عام ١٨٤٣م وهناك التقى بزعماء الحركة الاشتراكية الفرنســية، وقد تمكن فى باريس من قراءة تاريخ كل من فرنسا وثورتها، وإنجلــترا وألمانيا وكذلك النظم السياسية المعاصرة، ثم اشترك مع بعض الألمـــان المقيمين هناك –فى فرنسا– فى إصدار صحيفة اقتصادية فلسفية، إلا أن الحكومة الفرنسية طردته من باريس لآرائه الشاذة فانتقل إلى بروكـــس، وهناك استطاع بمعاونة إنجلترا فى إصـــدار مؤلفاتـــه وهـــو "الفلســفة الألمانية" كما تعرف فيها عن عصابة العادلين التى تحولت فيما بعد على عصبة الشيوعيين[١].

وفى سنة ١٨٤٨م قامت الثورة الفرنسية وأطيح "بلويس فيليب" من على عرش فرنسا فسافر ماركس إليها مسرعاً ولكن لم تطل إقامته فيها، فانتقل إلى مدينة كولون الألمانية وبالتعاون مع عصبة الشيوعيين أصدر

---

(١) الشيوعية والإنسانية، للأستاذ العقاد ص٢٤.

جريدة الشيوعية ولكن لم تدم طويلاً فسرعان ما أغلقت لتطرفها من ناحية، ولأن المجتمع لم يتقبل ما فيها من أفكار من ناحية أخرى.

وظل ماركس بدون عمل يعيش على الهبات والصدقات من أصحابه ومريديه متنقلاً بين الدول الأوربية طلباً للمساعدة والإحسان، ولما اشتد به الفقر أراد أصحابه إشفاقا عليه أن يهبوا له مصدراً للرزق فاتفقوا معه على تأليف كتاب الاقتصاد والسياسة وأعطوه الأجر مقدماً فأكله ولم يؤلف شيئاً، وإذا به تحت إلحاح الفقر والحاجة يتفق مع ناشر آخر على إخراج هذا العمل نفسه أملاً فى الحصول على المال، ولكنه لم يوف مع الثانى كما فعل مع الأول(١).

أخلاقه:

كانت أخلاق ماركس سيئة للغاية وقد سبق أن أشرنا إلى فصله من الجامعة بسبب سلوكه وأخلاقه فقد ضبط مرة وهو سكران وسيق إلى قسم الشرطة وكان يخاف الشرطة جداً، فكان يذهب إلى قرية قريبة من برلين ليشرب هناك بعيداً عن أعين الرقيب الجامعى، وكانت حالة أبيه المالية قد تدهورت وابنه لا يقدر ظروف أبيه(٢).

ومما يدل على سوء خلقه شهادة أبيه عليه فى مجموعة الوثائق والرسائل التى تحتوى فيما تحتوى أقوال أبيه عنه وكتاباته إليه ورأيه

---

(١) أنظر الشيوعية والإنسانية للعقاد، ص٤١.

(٢) الشيوعية والشيوعيين فى ميزان الإسلام، ص٦٠.

فيه، فقد قال عنه والده فى أحد رسائله: "إنك أنانى تغلب فيك الأنانية على جميع صفاتك" هذا رأيه فيه كإنسان أما رأيه فى أفكاره فقد كشفت عنه هذه الرسالة:

يقول والد ماركس: إن بعض الناس ينامون ملء عيونهم إلا أن يستدعيهم السرور إلى سهر الليل كله أو بعضه، على حين يقضى ولدى الموهوب الذكى "كارل" جملة لياليه مرهقاً جسده وعقله ليهدم غداً ما بناه اليوم، ويرى بعد ذلك كله أنه أضاع ما لديه ولم يستفد شيئاً لدى الناس[١].

إلى جانب ما سبق فإننا نجد ماركس يتنكر لكل أصدقائه ورفاقه إذ سرعان ما ينقلب عليهم ويهاجمهم أملاً فى الحصول على مال أو مركز.

يقول الدكتور/عبدالجليل شلبى، ويتصف بهذه الصفة الأنانية - جمود عاطفته إزاء إخوانه، ورفاقه، فلا يجامل محزوناً بكلمة مواساة، ولا مبتهجاً مسروراً بكلمة تهنئة أو إشعار بمشاركة وجدانية، حتى صديقه الوفى الذى يمده بالمال ويهبه الأفكار والمقالات ويبذل ماله وجهده لراحة زوجته وأطفاله، بعد هذا كله تموت خليلته وينال الحزن والاكتئاب لفقدها فيكتب إلى كارل يبثه أشجانه وما هو فيه من حسرات وآلام، فلا يظفر بكلمة مواساة واحدة، حتى يكتب له ثانياً فينكر أن أصحابه جميعاً ومنهم مخالفوهما فى الرأى الشيوعى قد قدموا له عبارات المواساة وأظهروا عطفاً لم يكن يتوقعه ثم يقول: أما أنت فقد اتخذتها فرصة لإظهار سمومك وتفوقك على الاكتراث بالأحداث[٢].

---

(١) الشيوعية والإنسانية للعقاد.

(٢) الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الإسلام، ص٦٤.

وكان متناقضاً مع نفسه ومبادئه فمع ادعائه أنه يناصر الشيوعية ويدعوا إليها إلا أنه كان مشرهاً فى الحصول على المال من أى اتجاه وبأى وسيلة حتى ولو كانت غير أخلاقية حتى ولو كان الثمن هو عرضه وشرفه.

فعندما مات أبوه جعل يطارد أمه وأخوته فى حقه فى الميراث الذى تركه والده وهو الذى يدعى أنه ضد هذه التشريعات فلما أخذ نصيبه على اللهو والشراب والشهوة أخذ يطالب أمه وأخوته على نصيبهم حتى ضاقت به أمه وأخوته لأنانيته وغضبت عليه أخته "صوفى" ونهرته قائلة: اعتمد على سعيك فى كسب رزقك ولا تنظر بعد اليوم مدداً تقطعه من قوت أهلك هذه أبرز الخطوط فى حياة نبى الشيوعية، ولا تخلو سيرته من كثير من المآخذ والمتناقضات منها:

١- رغم تبرئة من نسبه اليهودى وإظهار كراهيته لليهود إلا أن المادية اليهودية والشره على المال من أبرز صفاته وأظهر ما فى أخلاقه كما أن الطبعة التى دعا إلى أنصافها فى ألمانيا هى طبقة اليهود.

٢- كان عاقاً لأبيه حتى مات أبوه وهما على خلاف ولم يزعجه موت أبيه بقدر ما كان مشفقاً على نصيبه من تركته، ثم هو لا يراعى حق أخواته الأيتام.

٣- لقد وصل ماركس إلى أحط ما يمكن أن يتخيله عقل فعندما خطبت ابنته "لورا" من شاب أمريكى تخرج فى جامعة باريس ثم بعث إلى

إنجلترا لدراسات عليا فتعرف على "لورا" ونمت بينهما محبة أراد أن يتوجاها بالزواج الشريف وكان هذا الشاب من أبناء الإقطاعيين فى أمريكا الجنوبية، وكانت ثقافته وحدها تكفى الرغبة فيه واصطفائه زوجاً، لكن كارل أوقف هذه الخطبة حتى يتحقق من ثراء والده ومدى سعة أملاكه[١].

فانظر إلى داع الاشتراكية وعدو الإقطاعيين كيف يبحث عن الإقطاع ويجعل زواج ابنته متوقفاً عليه، ولا يجعل الثقافة العالية والمحبة المتبادلة عديلاً له.

٤- ومن المذريات فى حياته: إنه كان يعيش هو وزوجته وأولاده عالة على غيره كان يتسلف ولا يرد السلفة ويتقبل معونة الصديق وإحسانه وهو يعرف أنها معونة غير مردودة ثم هو بعد ذلك يتنكر لأصحابه ولا يعترف لهم بفضل.

هذه هى أبرز الأحداث فى حياة زعيم الماركسية ورائدها المعاصر ألممنا بها فى شىء من الإيجاز.

أما تأثيره فى عصره ومعاصريه فإننا نرى أن نذكر هنا رأى كل من "كارل شورز" و"برتراند راسل" فيه فلعل الصورة الموجزة التى جاءت فى عبارتهما القصيرة تكون أبلغ فى نقل ما أردنا نقله إلى قرائنا الأعزاء من كثير من الصفحات.

---

(١) المصدر السابق.

يقول: "كارل شورز" إنه لم ير فى حياته رجلاً بلغ سلوكه فى البغضة التى لا تطاق ما بلغ كارل ماركس، يعامل من يخالف رأيه بكثير من الازدراء والتحقير ولهجته برجوازية ومع هذا يسرع باتهام كل مخالف له بأنه برجوازى ذو عقل ضيق وخلق وضيع.

ويقول عنه بعض معاصريه: إن نفسيته تعقدت بسبب يهوديته أولاً، وعدائه لليهودية أخيراً، فأصبح مزدوج الشخصية يشتم اليهود بلسانه وينهج منهجهم فى كل أعماله، ثم أن قسوة المجتمع على اليهود وكراهيتهم كونت فى نفسه مشاعر مكبوتة تنفست فى كراهية الناس وكراهيته للشعوب.

ويقول عنه برتر اندرسل الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزى المعاصر: إذ نظرنا إلى كارل ماركس على أنه فيلسوف فإننا نجد لديه فقراً محزناً فى الفلسفة وإنه يعتمد على الممارسة والعمل وهو مرتبط إلى درجة كبيرة جداً بمشاكل عصره وأفقه الفكرى المحصور فى محيط هذا الكوكب الأرضي، وإنه لمن الواضح أن الإنسان ليس هو الأهمية الكونية التى يتباهى ماركس ويتظاهر بمنهجه تجاهها، أن الشخص الذى يضل فى إدراك هذه الحقيقة ليس له الحق فى أن يسمى فلسفته فلسفة علمية.

هذا هو تقييم برتر اندرسل لماركس ولفلسفته من جهة كونه فيلسوفاً ومن قبل قول كارل شورز من جانبه الأخلاقى والإنسانى، تبين لنا من خلالها مدى البغضاء والكراهية من قبل ماركس لكل أصدقائه وأعوانه

إلى جانب فشله كفيلسوف ولم يكن لماركس مبدأ كما لم يثبت على مبدأ وخير شاهد على هذا هو مسيرة حياته التى أسلفنا القول عنها فيما مضى فهى خير شاهد على حياته وسلوكه، وإن جاز أن يكون لماركس مبدأ ثابت يحافظ عليه ولم يناقضه فهو محاولته الحصول على المال.

نهايته وفشله:

عرفنا فيما مضى أن حياة ماركس كانت مضطربة من ناحية الدين والخلق والمبادئ والحال هنا فى نهايته حيث كانت نهايته أسوأ النهايات فقد أصيب والأسرة نتيجة سوء التغذية والسكن بكثير من الأمراض الخبيثة.

لقد ماتت بنتاه منتحرتان بسبب حياتهما التعسة التى كان سببها سوء التربية والسلوك، وعشقهما لمبادئ والدهما المضطربة، ومات ابنه الأكثر "إدجار" ولم يتجاوز التاسعة من المرض بسبب الحاجة.

وماتت زوجته "جينى" بنفس الأسباب السابقة وذلك فى عام ١٨٨١م ولم ينتظر بعد موت زوجته طويلاً فقد هلك فى عام ١٨٨٣م فى جو مشبع بالنظريات الاشتراكية التى لا تؤمن بمبادئه وآرائه.

وترجع أسباب الخلل والتناقض فى حياة ماركس إلى عوامل عدة أهمها:

١- تحلل الأسرة وإنسلاخها عن دينها مما طبع ماركس منذ البداية بطابع التحلل والتناقض.

٢- تدليله وعدم إحكام الرقابة عليه مما ترتب عليه فشله في حياته العملية بعد فشله في حياة الروحية، فنشأ لا يعرف حرمة لصديق ولا يقيم وزناً لمبدأ.

٣- فساد المناهج التربوية في المدرسة التي تلقى تعليمه الأولى فيها مما يترتب عليه تمرده وثورته.

٤- اعتلال جسده وسوء حالته الصحية نتيجة سوء التغذية والسكن وقلة المال[١].

ثانياً- فرديك انجلز:

هو (فرديك انجلز) زميل ماركس وصديقه الحميم من كبار المؤسسين للمذهب الماركسي، ولد في ٢٨ نوفمبر ١٨٢٠م في مدينة (بارمن) بمقاطعة (الراين) بألمانيا لوالد ثرى يشتغل بصناعة نسيج القطن، وكان والده هذا نشطاً متمسكاً بعقيدته الدينية المسيحية، ويميل في السياسة إلى الاتجاه المحافظ.

ورغم هذا التدين من أبيه إلا أن انجلز بدأ عليه علامات التمرد على القيم الدينية والمتمسكين بها منذ صغره، وقد تلقى تعليمه أولاً في مدرسة (بارمن) حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره، ثم التحق بالمدرسة الثانوية ودرس الكيمياء والفيزياء والرياضة والتاريخ واللغات القديمة

(١) الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام، ص٥٣.

والأدب الألمانى الكلاسيكى، ونبغ فى دراسة اللغة اليونانية واللاتينيـــة، والى جانب ذلك امتد اهتمامه إلى مجـــالات ثقافيـــة أخــرى كالشــعر والموسيقى والرسم.

ومن مظاهر تمرده على الدين ما يذكره الكاتبون عن حياته من أنه كان يضيق لجو التزمت والتعصب فى المدرسة المصحوب بالانضبــاط الشديد وكان يصف المدارس الألمانية فى أيامه بأنها سجون، وقد تمــرد انجلز على استبداد والده ومدرسيه، وعلى التزامه الذى يتطلب الخضوع المطلق والوقار الزائف، وبحث عن الخلاص فى عقيــدة خاصــة بــه تستبدل طقوس العبادة المتزمتة بإيمان يعتمد على الحواس(١).

وكان يتطلع إلى دراسة الاقتصاد والقانون بعــد إتمــام الدراســة الثانوية إلا أن أباه أصر على أن يشارك فى أعمال الأسرة بوصفه أكـبر الأبناء فخرج سنة ١٨٣٧ من المدرسة الثانوية والتحق بمكتب أبيه ليبـدأ التدريب على العمل لكن ذلك لم يشغله عن دراســة التــاريخ والفلســفة والأدب واللغويات والشعر.

وبعد أن تعلم أساليب التجارة فى مؤسسة أبيه أرســل فــى ســنة ١٨٣٨ إلى مدينة (بأرمن) ليعمل فى مؤسسة تجارية كبرى، ولما كــانت هذه المدينة ميناء تجارى فقد تهيأ له الاطلاع علــى الــدب والصحــف الأجنبية وكرس أوقات فراغه لقراءة الروايات وكتب السياسة.

---

(١) فردريك انجلز: حياته وأعماله، إعداد معهد الماركسية اللينينية، ترجمة أسما حلين، نشر دار الثقافة الجديدة ص١٨.

وفى سنة ١٨٣٩م بدأ انجلز نشاطه السياسى والاجتماعى كاشفاً فى أفكاره عن عدائه للدين والقيم الدينية، فبدأ بهذه الروح المتمردة يكتب فى جريدة ألمانية اسمها (برقية إلى الوطن الألمانى) وانضم إلى جماعة أدبية سياسية باسم (ألمانيا الفتاة) واستجاب لأفكاره التى كانت تعلن رغبتها فى أن تنقل إلى الشعب الأفكار الحديثة ضرورة توفير الحرية السياسية والقضاء على الإكراه الدينى وغير ذلك.

ومما يؤكد معاداة (انجلز) للدين ورجاله ما جاء عنه فى رسالته التى أرسلها إلى صديق له قال فيها: "إننى أجد خطى الحرية تظهر فى قصائدى وتسخر من دعاة الظلام الذين يرتدون مسوح الرهبان"(١).

وفى أواخر سنة ١٨٣٩م اهتم بدراسة فلسفة "هيجل" المثالية وأعجب بمنهجه الجدلى، غير أنه بعد ذلك أخذ يوجه النقد إلى ما يراه من سلبية فى فلسفة "هيجل" فانضم إلى جماعة (الهيجليين اليساريين) وقرر فى نقده أن فلسفة هيجل تشمل على تناقضات تتمثل فى عدم التلاؤم بين الفكرة الفلسفة الأساسية لهيجل (الديالكتيك) وبين النتائج المحافظة المتواضعة التى انتهى إليها.

ثم أقبل انجلز على دراسة مختلف النظريات الاشتراكية فى أوروبا واقتنع بأن الشيوعية وحدها هى التى يمكن أن تقدم حلاً للقضية

---

(١) فرديك انجلز: حياته وأعماله، ص٢٣ وما بعدها.

الاجتماعية ثم سافر إلى إنجلترا فى نوفمبر ١٨٤٢ ومكث فيها عــامين، وخلال هذه الفترة انتقل نهائياً إلى الإيمان بالمادية وبالشيوعية(١).

وفى أواخر حياته أصيب انجلز بسرطان المرىء، وظل هذا الأمــر ملازماً له حوالى خمسة أشهر حتى مات فى ٥ أغسطس سنة ١٨٩٥م(٢).

تلك فكرة موجزة عن حياة رجلين من أبرز المؤسسـين للحركــة الماركسية ذكرناها بإيجاز مراعاة لظروف البحث.

والآن ننتقل إلى نقطة أخرى من نقاط البحث نتحدث فيها عن نشأة الماركسية فى الاتحاد السوفيتى، وبالله التوفيق.

نشأة الماركسية فى الاتحاد السوفيتى:

لم يكن للوس شأن يذكر فى التاريخ حتى أوائل القرن الثامن عشر فقد ظلوا خلال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة قوماً خــاملين فى ميدان السياسية والحضارة، ورغم كثرة عددهم، واتساع رقعة بلادهم وقد كانت بلادهم فى طريق التتار الذين كانوا يغيرون من أواسط أسيا علــى أوربا، فأثرت تلك الغارات المتتابعة فى حياتهم العامة، عاقتهم عن مجــاراة الشعوب -فى وسط أوربا- التى سارت بخطوات واسعة نحو الحضارة(٣).

---

(١) المصدر السابق، ص٤٥.

(٢) تهافت الفكر الماركسى ص٢٢.

(٣) حقيقة الشيوعية - على أدهم - ص١١ / المكتب المصرى الحديث.

وعندما تولى "ايفان الثالث" حكم روسيا (١٤٦٢-١٥٠٥) استطاع توحيد معظم الإمارات الروسية وبدأ يحاول الخروج بروسيا من عزلتها والاتصال بالأمم الغربية، وشرع فى إيجاد العلاقات الودية والسياسية مع كثير من إمارات أوربا وممالكها.

وكان ايفان أول من غرس الأوتوقراطية فى روسيا، إذ كان يميل بطبعه إلى الحكم الاستبدادى، معتقداً أن الناس عبيد الحاكم، وأنه ظل الله فى أرضه ينوب عنه فى حكم عباده، فكان بذلك أول من بذر روح الطغيان الذى ظلت روسيا ترزح تحت أعبائه عدة قرون[١].

وجاء بعده خلفاء كان الاستبداد دينهم والطغيان حليفهم، فحفيده ايفان الرابع (١٥٣٣-١٥٨٤) لقبه الناس "ايفان الفظيع" لكثرة الفظائع التى ارتكبها فى أواخر عهده، وفى فترة الاضطراب التى تلت وفاة ايفان الرابع عمت الفوضى، وازداد اضطهاد الفلاحين مما حملهم على الفرار من أراضيهم إلى الغابات أو إلى سيبريا، وكان الموقف دقيقاً عندما تولى العرش ميشيل روماتوف (١٦١٢-١٦٤٥) مؤسس أسرة روماتوف، وهى الأسرة التى ظلت تحكم روسيا حتى حدث الانقلاب الشيوعى سنة ١٩١٧ اعتلى ميشيل العرش فى أعقاب الفوضى التى أخلت الأرض من فلاحيها وتركت الأشراف حيارى لا يجدون الأيدى العاملة التى تكبح فى الأرض وتخرج منها ذهباً لا ينتفع به سوى هؤلاء الأشراف الإقطاعيين،

---

(١) المصدر السابق، ص١٢.

فجاروا بالشكوى فى حالة الفقر والبؤس التى تهددهم، وانحصرت مطالبهم فى إيجاد طريقة لاسترجاع هؤلاء البؤساء الهاربين.

لبت الحكومة نداء الأشراف، ووضع التشريعات اللازمة لإرجاع الفلاحين إلى الأرض وإلا استهدفوا للسجن أو الإعدام، ونشط البوليس لجمع الفلاحين، وصدر مرسوم قيصرى فى عام ١٦٤٨م كان فاتحة نظام رقيق الأرض، إذ كان من نتيجته تسليم الفلاحين للأشراف باعتبارهم جزءاً من أملاكهم بحجة أن ذلك يعيد الاستقرار.

وأصبح الفلاحون تحت رحمة سادتهم ملاك الأرض كأنهم قطيع من الأغنام وصارت الأرض تباع بمن عليها من البشر، بل كان بعض الأشراف يستعمل فلاحيه كعملة يسدد بها ديونه، أو يستبدل بهم متاعاً يريد شراءه[١].

وقد عانى الفلاحون فى روسيا خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من ألوان العذاب ما جعلهم يفضلون الفرار إلى غابات سيبريا المجهولة، كما أدى الطغيان فى بعض الحالات إلى فرار بعضهم لتكوين عصابات لقطع الطريق ومهاجمة المزارع الكبيرة أثناء الليل، ولكن الغالبية العظمى من سكان روسيا ظلت ترزخ تحت نير الرق والاستعباد.

وأصبحت حالة روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر تستدعى الإصلاح ومحاولة تطبيق بعض النظم الاشتراكية المعتدلة، حتى لا

---

(١) حقيقة الشيوعية ص١٤.

يحدث الانفجار الذى يهدد كيان الدولة، ونشبت الثورة الشيوعية الحمراء فى روسيا سنة ١٩١٧م، ولقد أدى ذلك إلى انتشار المذهب الماركسى.

أسباب انتشار الماركسية:

استطاعت الشيوعية وهى تتربص بالعالم لتنقض عليه بغية تحقيق أهدافها وغاياتها، ومع أن الماركسية لا تملك من داخلها قوة ذاتية يمكن أن تكون هى الدافع وراء انتشارها كما نرى فى بعض العقائد التى تحمل فى دعوتها أسباب انتشارها، ولكن الماركسية مرض خبيث يتسلل إلى قلب الشيوعية والأمم من خلال الأزمات السياسية والاقتصادية التى تنتاب المجتمعات فى بعض فترات الضعف فى تاريخها لتبث بالتضليل والخداع سمومها مستخدمة فى ذلك كل الأساليب والحيل والمتتبع للتيار الشيوعى وكيفية تغلغله فى بعض الدول التى اجتاحتها يجد هناك جملة من الأسباب وراء هذا الانتشار الرهيب ويمكن لنا أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى:

١- الحرب العالمية الثانية وأثرها فى العالم:

لا يستطيع أحد أن ينكر الآثار الخطيرة التى تركتها الحرب العالمية الثانية فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وما ترتب عليها من انقسام العالم إلى معسكرين كبيرين هما المعسكر الغربى والمعسكر الشرقى ومحاولة كل من المعسكرين فى اجتذاب الاتباع والحلفاء، ونتيجة لذلك تزعمت روسيا الشيوعية المعسكر

الشرقى وركزت فى دعايتها ضد الغرب على تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها والوقوف بجوار المظلومين منتهزة فى ذلك سوء السياسة الرأسمالية واستغلالها لمقدرات الأمم وثروات الشعوب.

لقد أبرزت الحرب العالمية الثانية وما تركته من بصمات وأثار على الساحة العالمية روسيا كدولة كبرى وركبت الماركسية موجة هذا الانتصار واستغلتها بذكاء خبيث فى تثبيت أقدامها وبسط نفوذها.

لقد كان نجاح الثورة الشيوعية عام ١٩١٧م -بدون شك- تحقيقاً لأول أحلام كارل ماركس، وظهوراً لأولى ثمرات نظريته التى أعلن عن مبادئها لأول مرة عام ١٨٤٨م، وإذا كان رفاقه وتلاميذه لم يهنوا ولم تفتر عزائمهم بعد وفاته عن تنفيذ وصاياه وتحقيق نبوءاته، مما مهد لامتلاكهم زمام الأمر بنجاح الثورة[١].

٢- فساد الأحوال الاقتصادية والتفاوت فى الثروات:

تستغل الشيوعية دائماً أية فرصة تستطيع أن تنفذ منها إلى صميم المجتمعات من الداخل، فإذا أوجدت بعض الأخطاء السياسية أو الاقتصادية فى شعب ما نفذت إلى الناس تثير فيهم الأحقاد وتؤلب الفقراء على الأغنياء، وتحفز العمال وتغريهم بالتمرد على أصحاب الأعمال، وتزكى فيهم روح الصراع الدموى لكى ينقض الفقراء وهم الأغلبية على

---

(١) قيمة الفلسفة الماركسية من خلال رؤية إسلامية، د/ حسن محرم الحوينى ص٧، ط/ دار الهدى للطباعة.

الأغنياء وهم قلة أعمالاً لمبدأ حتمية الصراع الدموى وضرورته فى إحداث التغيير[١].

٣- الدعم اليهودى للشيوعيين:

هذا العامل لا يقل فى أهميته وتأثيره عن العاملين السابقين إن لم يفقهما ويتقدم عليهما فى الفاعلية والتأثير.

لقد كان الدعم اليهودى للشيوعيين بكل ما أوتى اليهود من إمكانات مادية وفكرية يقدمونها لخدمة الشيوعية، ولم يكن ذلك الإخلاص اليهودى فى سبيل نجاح ثورة هؤلاء حباً ووفاءً لهذا المذهب أو إيماناً منهم بمبادئ ماركس ونبوءاته كحركة إصلاحية أو كرسالة سامية غايتها إنقاذ العالم لاسيما فقرائه والمستعبدين فى ظل النظم المستبدة والظالمة من رأسمالية وإقطاع، فلم يكن ذلك هدفاً لليهود فى أى زمان ومكان وهم مصدر الشر والتخريب والحقد على من سواهم من بنى البشر، يزخر بذلك تاريخهم فى شتى حقبه وأطواره.

ومن ثم كانت غاياتهم الحقيقية من وراء مساندتهم المخلصة لنجاح الثورة الشيوعية فى روسيا، انهم رأوا فى الشيوعية إحدى قوى ثلاث يجب استغلالها لتنفيذ مخططهم التخريبى، وتحقيق هدفهم الإجرامى الذى يتمثل فى سادتهم للعالم وسيطرتهم على مقدراته[٢].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب ص٧٠ - ط/ دار الشروق.

(٢) قيمة الفلسفة الماركسية من خلال رؤية إسلامية ص٨.

وقد وجدوا للشيوعية تربتها الخصية ومناخها الملائم فى روسيا حيث كثير من زعماء اليهود ورجال الفكر الاشتراكى من أمثال: لينين، وستالين، وتروتسكى: ثم تتوالى الأنشطة والحركات اليهودية إلى جانب الأنشطة والحركات الشيوعية لتمهد لنجاح الثورة وتحقيق الحلم.

٤- المؤامرات التى تعرضت لها روسيا قبل قيام الثورة:

يضاف إلى العوامل السابقة عامل لا يمكن تجاهل أثره، وذلك ما تعرضت له روسيا القيصرية قبل قيام الثورة بقليل، من سلسلة من المؤامرات الشيوعية واليهودية وما نجم عنها من قلاقل واضطرابات، وقد انعكس كل ذلك على ضعف النظام القيصرى الحاكم سياسياً واقتصادياً مما أوقع القياصرة فى خرج حين دخلوا الحرب مع الألمان، كل ذلك قد مهد السبل وهيأ الظروف لتمكن الماركسيين من قلب النظام القيصرى واستيلائهم على نظام الحكم برياسة "نيقولا لينين" مع رفاقه بعد عودتهم من المنفى أو الإقامة خارج البلاد عام ١٩١٧، وكان أول ما كافا لينين ورفاقه اليهودية أن أعلنوا فى أول قرارات اللينينية، قراراً يقضى بوجوب العمل على إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين.

وهكذا وجدت كل من الماركسية واليهودية فرصتها فى الأخرى تحقيقاً لأهدافها الإجرامية.

وقد نشرت واحدة من كبريات المجلات اليهودية قولها: إن الثورة الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود، وأنها قامت نتيجة لتدبير

اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ونتيجة لتدبير اليهود، ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم(١).

كما ينص البروتوكول الثالث من بروتوكولات حكماء صهيون على قولهم: إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين، والفوضويين، والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية(٢).

٥- ضعف الوازع الدينى:

وهذا العامل يعد من أهم العوامل وأخطرها جميعاً، فلو كان الدين قوياً فى نفوس الأفراد لما استطاعت المذاهب أو التيارات الهدامة بكل حيلها وأساليبها أن تصل إلى قلب أى رجل مؤمن شرح الله صدره للإيمان ولكن الفراغ الفكرى والعقائدى الذى أوجده جهل الناس بحقائق الإسلام والكشف عن جوهره، وتعريف النشء به من ناحية أخرى ساعد على غرس بذور الشك فى قلب ضعفاء الإيمان، وكلما تعمق الشك نما

---

(١) مجلة أفريكان هيرو فى عددها الصادر يوم ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠ - حقيقة الشيوعية.

(٢) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام - فتحى يكن ص٣١ وما بعدها، وانظر الحظر اليهودى بروتوكولات حكماء صهيون - محمد خليفة التونسى ص١٨٣.

الكفر والإلحاد، وكلما نما الكفر والإلحاد وجدت التيــــارات والمذاهـب الهدامة وخاصة الشيوعية مرتعاً خصباً فى نفوس الأفراد، وبيئة ملائمـة لنشر سمومها وسريانها، وما أسهل أن تســرى السـموم فــى الجسـد المريض والعقل المخمور(١).

هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى انتشار الماركسية، وإن كـانت هناك أسباب أخرى ثانوية تأتى فى الترتيب بعد ما قدمته من أسباب مثل التطلع إلى السلطة وطموح بعض الأصوليين إلى تبوء بعض المراكـز الحزبية والقيادة فى المجتمعات التى تأخذ بعض مبادئ الشيوعية.

ومثل حب الشباب للمغامرة والثورة على التقاليد الاجتماعية القديمة والانقلاب على المبادئ الدينية والقيم الأخلاقية.

ومن كل ما تقدم نصل إلى حقيقة لا شك فيها وهى أن الصهيونيـة أصل الشيوعية، وأنهما صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة.

مصادر الفكر الماركسي:

من المسلم به بداهة أن الإنسان مهما بلغ ذكاؤه ومهما كانت عقيدته لا يستطيع أن يبدأ فكره من فراغ بل لابد لفكرة هذا من روافد يأخذ منها ومصادر يستمد منها عناصر مذهبه، وإذا كنـــا هنـــا بصـدد دراسـة الماركسية فإنه يمكننا أن نقول: أن كارل ماركس لم يصدر فى نظريتـه

---

(١) الماركسية بين الدين والعلم – د/ جميل محمد أبو العلا ص٣٦، ط/ الأمانة بالقاهرة.

من فراغ وإنما كانت هناك روافد لفكره ومصادر استمد منها المادة الخام لنظريته ثم صاغ هو هذه النظرية وأبرزها فى صورتها النهائية بإمكاناته وقدراته الشخصية.

ومن خلال هذا المنطق نقرر أن ماركس لم يبدأ أفكاره من فـــراغ ولم يكن هو المخترع الأوحد لها وإنما سبق بهذا الفكر من قديم الزمـــان، وفى هذا يقول الدكتور البهى: لقد تكونت فلسفة كارل ماركس ونظرياتـه وآراؤه من أفكار الفلاسفة السابقين عليه، ولاسيما الفيلســوف الألمـانى الكبير هيجل، حيث تأثر به ماركس تأثراً كبيراً وقد اعترف هذا الرجــل بأنه تلميذ لهيجل(١).

ومصادر الماركسية كثيرة ومتنوعة يمكن أن نجملها فيما يلى:

١- فلسفة "هيجل":

تعد فلسفة هيجل من أهم المصادر التى تأثر بها ماركس ولعبـــت دوراً بارزاً فى تكوين النظرية الماركسية، فكيف تأثر ماركس بفلســـفة هيجل، من الثابت أن ماركس قد أغرم بهذه الفلســـفة الهيجليـــة وعلـى الأخص بمبدأ النقيض منها، ومبدأ النقيض يرجع بجذوره إلى مـــا قبــل هيجل، الذى يبدو أن هيجل قد استمد فكرته من "فيشته".

وإن كان كل من فيشته وهيجل ثم من بعدهما ماركس قد استخدموا

---

(١) العلمانية والإسلام، د/ محمد البهى ص٢١، ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

مبدأ النقيض إلا أن كلاً منهم استخدمه استخداماً خاصاً ينفرد به ويغاير به استخدام الآخرين.

فقد استخدم "فيشته" فى تصور الإنسان لنفسه لكى يدعم به سيادة العقل كمصدر للمعرفة فى مقابل الدين والطبيعة، واستخدامه "هيجل" لتأكيد قيمة العقل ثم لتدعيم فكرة الألوهية وتأكيد الوحى كمصدر أخير للمعرفة، وذلك على اعتبار أن الله عقل، فهو يريد تأكيد سيادة العقل، ولكن على الطبيعة لا على الدين، وهذا هو الفرق بينه وبين فيشته.

فلباب فلسفة هيجل يرتكز على أن الوجود الحق هو وجود الفكرة المطلقة وأن الفكرة أزلية أبدية.

ثم يأتى بعدهما "ماركس" فيستخدم مبدأ النقيض فى الفلسفة المادية وينزل به إلى دائرة المجتمع مغايراً بهذا المجال التصور الذهنى الذى وجدناه عند "فيشته" ومغايراً به الفكرة التى عرفناها لهيجل ليستخدمه فى مجال الاقتصاد، مستنداً فى هذا الاستخدام إلى تاريخ الجماعة وإن كان ماركس قد استخدم مصطلحات "هيجل" وتأثر بالحركة الديالكتيكية من فلسفة هيجل، إلا أنه قد خالف هيجل وتعلق بالشكل فقط من نظريته دون المضمون[١].

ولقد استخدم (هيجل) مصطلحات خاصة به هى: الدعوى مقابل الدعوى وجامع الدعوى ومقابلها، وتصور أن هناك فكرة مطلقة أطلق

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، د/ محمد البهى ص٢٨٩.

عليها اسم العقل المطلق -وهو الله تعالى- انبثقت عنه الطبيعة وهى بلا شك تغايره تمام المغايرة، وهى عنده العقل المقيد لأنها مقيدة ومتفرقة، ثم انتقلت الفكرة من العقل المقيد (الطبيعة) إلى جامع يلتقى فيه النشء ونقيضه وهو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها وهو جامع الدعوى ومقابلها.

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق وفى الفن، والدين والدولة والجماعة والفلسفة، إذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين، جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة المقيد، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة، وتقييد بالنسبة للعقل المطلق، ولهذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى[١].

يقول هيجل شارحاً منهجه:

إن الفكرة فى عمله يجتاز خطوات ثلاثاً، فهو يبدأ بذاته مجرده، أعنى بإدراكه لذاته المجردة، ثم ينتقل إلى مجال يصادف فيه ما يناقضه ويعارضه ثم يخطو بعد ذلك إلى الوحدة التى تضمنه وتضم معه اضداده التى مر بها فى مرحلته الثانية[٢].

ويبين هيجل أن هذا التطور الثلاثى، الشىء أولاً، ثم نقيضه، ثم

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٩٧.

(٢) قصة الفلسفة الحديثة - أحمد أمين وزكى نجب محمود جـ١ ص٢٤٥.

المركب منهما ليس قاصراً على الفكرة، وإنما هو عام شامل يبدو فى الطبيعة كما يبدو فى مجال التاريخ والفلسفة يقول:

وليست تلك الحركة الثلاثية قاصرة على الفكرة، بل إنها تتناول العالم بأسره، وكل شيء يؤيد صحة هذا تؤيده الطبيعة ويؤيده التاريخ والفلسفة وإن التاريخ ليشهد كذلك بصحة هذا القانون بصورة أوسع فالمدنية تتقدم بفعل ورد فعل بين النزعات المتضادة، فعصور السلطة يتبعها عصور إباحية وفوضى، ومن اتحاد الاثنين تنشأ مرحلة سامية من الحرية الدستورية[1].

لقد قرأ ماركس هذه الأفكار التي جاء بها هيجل وتأثر بها هو وأنصاره الماركسيون فأخذوا عنه فكرة الجدل إلا أنهم طوعوها وقلبوها لكي تنسجم وتتسق مع قولهم بمادية العالم وإنكارهم لوجود الله وسائر الغيبيات ذلك أن هيجل يصدر في منهجه عن إيمان بوجود الخالق المنظم (المطلق) واعتبر هذا الوجود هو الوجود الواقعي وليس العالم المادي إلا مظهراً وتجلياً له.

أما ماركس وأتباعه فجعلوا العالم المادي هو الوجود الواقعي الحقيقي أما الفكر أو الوعي فهو انعكاس للوجود المادي، ومن ثم فإنه بالرغم من اعتماد الماركسية على ديالكت هيجل، وجه ماركس وأنصاره النقد إلى فلسفته واعتبروها نظرة مثالية جامدة منحرفة تؤدي إلى نتائج متناقضة من الناحية العملية.

---

(١) المصدر السابق ص٢٤٣.

يقول "كارل ماركس" لا يختلف منهجي الجدلي في الأساس عن منهج هيجل فقط، بل هو نقيضه تماماً، إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التي يجدها باسم الفكرة هي مبدعة الواقع الذي ليس سوى الصورة الظاهرية للفكرة، أما أنا فأعتقد على العكس، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس لحركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان[١].

ماركس وفيرباخ:

إذا كان ماركس قد تأثر بفلسفة هيجل فإنه كذلك قد تأثر بمادية فيرباخ.

وإذا كانت الفلسفة المادية القديمة حيث وجدت كرد فعل ضد المفاهيم الميتافيزيقية للكون وظهرت من أيام الإغريق وقبل سقراط وأفلاطون فالفيلسوف "ديمقريطس" لا يرى في الوجود سوى ذرات تسبيح في فراغ وأن الروح نفسها مادية مكونة من ذرات كغيرها من الأشياء، وإذا كانت المادية قد تراجعت تحت تأثير المسيحية فقد استعادت قوتها عندما وجدت حركة علمية قوية سادت كل فروع العلم، وقد تبلورت الفلسفة المادية عند فيرباخ الذي يرى أن الوجود يسبق الوعي وأن الفكرة نتاج المادة، وفي مؤلفه – جوهر المسيحية – ينظر فيرباخ إلى الدين على أنه نتاج خيال للإنسان، فإنسان هو الذي خلق الله بخياله كقوة تعينه في قضاء حاجاته وتحقيق الأمن له ودفع المخاطر عنه، والإنسان يصنع الله لأنه – أي

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة – محمد قطب ص ٢٦٨، نقلاً عن كتاب رأس المال لماركس.

الإنسان – عندما يعجز عن الوصول إلى الفضائل والقيم المثالية إنما يتسامى بها ويخلعها عن كائن خيالي، وهو بذلك ينحرف أو يتخلى عنه أحسن ما فيه لمصلحة ذلك المعبود الوهمي[١].

ويلاحظ فيرباخ تاريخيا أن الصورة التي يرسمها الإنسان لله والصفات التي يخلعها عليه قد تغيرت بتغير المراحل التي مرت بها المدنية الإنسانية وما تميزت به كل منهما من مستوى أخلاقي وحضاري.

سار فيرباخ نحو المادية الهوجاء فالله والدين عنده ليس أي منهما أساس للدولة، وإنما أساسها الإنسان وحاجته ليس الإيمان بالله ولكن الشك في الله يجب أن يكون العامل في قيام الدولة، ويجب أن يتوفر إيمان الناس بذواتهم، لأن الإنسان لو آمن بالله فسيظل واثقاً به بدلاً من أن يثق بالناس والباقي لنا هو الإنسان وحده[٢].

إن ماركس بناءاً على مبدأ النقيض يحلم بزوال جميع الطبقات ما عدا طبقة العمال، كما يعتقد بأن الصراع بين الطبقات سوف يجعل انتقال الملكية بين الطبقات حتى تصل في النهاية إلى طبقة واحدة وهي طبقة العمال، ومجتمع واحد، وهو المجتمع الشيوعي.

---

(١) العلمانية والإسلام، د/ محمد البهي ص ١٩ وما بعدها.

(٢) المذاهب والنظم الاشتراكية، د/ محمود البنا ص ١٦٣، ط/ دار الاتحاد العربي للطباعة، وانظر كذلك الفكر الماركسي في ميزان الإسلام، د/ محمد رشاد عبد العزيز ص ٤٤ وما بعدها.

٢-الاقتصاد السياسي والإنجليزي:

لقد كان الاقتصاد الإنجليزي بحق مصدراً من أهم المصادر التي استقى منها ماركس نظريته وسار بها إلى ما وصلت إليه وذلك في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، إذ كان الاقتصاد الإنجليزي قد بلغ شأناً عظيماً من الدقة والتنظيم فى ذلك الوقت – ويمضي زمن غير قصير على قيام الثورة الصناعية – كانت المصانع اليدوية الصغيرة قد انتقلت إلى مؤسسات ومصانع ميكانيكية كبيرة تدار بأساليب تكنولوجية متقدمة فتضخمت أعداد العمال في المصانع، وتعددت مشاكلهم ومطالبهم، وغدت الحاجة ماسة إلى قيام تشريعات وقوانين جديدة تعنى بالعمل والعمال، ومن ثم راح علماء الاقتصاد من الإنجليز يضعون هذه القوانين ويسنون اللوائح والنظم التي تعنى بهذا الجان بالمهم من الحياة، ووصل الباحثون إلى وضع نظرية اقتصادية هامة هي نظرية (القيمة والعمل) ولقد انبهر ماركس بالاقتصاد الإنجليزي وما اتسم به من النظام والدقة فواصل البحث ليكمل ما وقف عنده الاقتصاديون الإنجليز، ولكن من خلال وجهة نظره الخاصة حيث لم يلتزم تماماً بما وصلوا إليه في تلك النظرية، إذ نراه يعرف القيمة بأنها الشكل المنظم للعمل الاجتماعي[١].

كما أنه لم يلتزم الصمت أمام المشاكل العمالية كما فعل الاقتصاديون الإنجليز مجاملة لأصحاب الثروات، بل أنه سار في البحث

---

(١) التيارات والمذاهب الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ١٤١.

حتى انتهى كما يقول : إلى الأساس الأول والأخير لهذه المشاكل ونعنى به (فائض القيمة) ولقد بسط هذه النظرية في كتابه المعروف (رأس المال).

وملخص هذه النظرية:

أن العناصر الفعالة في إنتاج السلعة هي – المنتج بما يقدمه من رأس المال ووسائل الإنتاج، والعمل بما يقوم به من عمل وجهد في الإنتاج وتكاليف إنتاج السلعة نفسها[١].

وتعتبر هذه النظرية النقطة المركزية في فلسفة ماركس الاقتصادية، وتقوم هذه النظرية على فكرة أن العمل الإنساني هو مصدر قيم الأشياء أو على حد تعبير إنجلز : أن العمل مصدر لكل ثراء ومقياس لكل القيم[٢].

فالقيمة المتبادلة لسلعة ما تتوقف على مقدار ما بذل من عمل في إنتاجها وهذا ما يعبر عنه ماركس بأن الجهد البشري هو القوة الوحيدة القادرة على خلق القيمة، أي أن العمل هو الذي يخلق الثروة، وقد ربط ماركس بين نظريته في القيمة ونظريته في المنفعة فهو يرى أن منفعة الشيء تتوقف على مقدار العمل اللازم له، فإذا كان للشيء قيمة تبادلية فذلك لأن العمل الذي بذل في إنتاجه جعله نافعاً صالحاً للاستعمال ومقياس القيمة يتوقف على مقدار العمل المطلوب للشيء، فالشيء النافع

(١) مذاهب فكرية معاصرة – محمد قطب ص ٢٨٠، نقلاً عن كتاب رأس المال لماركس.
(٢) الماركسية تأليف فردريك إنجلز ترجمة ماهر نعيم ص ١١٠، ط / دار المعارف.

إذن لا يكتسب قيمته إلا من العمل الإنساني الذي استنفذ فيه، وما دام العمل هو الذي ينتج الثروة فللعمال الحق في أن يستولوا على كل ما ينتجه العمل، ولكن الملاحظ أن العامل يأخذ أقل مما يستحقه في خلق قيمة الأشياء، فالرأسمالي في النظام الاقتصادي الحاضر يشتري من العامل قوة عمله وهي كسائر السلع الأخرى تحدد قيمتها بكمية العمل اللازم لإنتاج ما يحتاج إليه العامل ليعيش عيشة الكفاف، ثم يستخدم الرأسمالي قوة العامل التي اشتراها على هذا النحو ليحصل بها على قيمة أكبر وذلك باستغلالها أسوأ استغلال وبتشغيلها وقتاً أطول، ومن الفرق بين القيمتين يحصل الرأسمالي على ربح وفير وهذا الفرق هو ما يسميه ماركس بفائض القيمة، وهذا الفائض ينتج إذن من استخدام رأس المال في توظيف العمال[1].

ولم يقف ماركس عند هذا الحد بالنسبة للاقتصاد بل إنه يسير فيه بخطوات واسعة، إذ يبالغ في أهمية هذا الجانب الاقتصادي في الحياة ويعزي إليه كل شيء في الواقع، فيرى أن العامل الاقتصادي هو كل شيء في حياة الناس بل إنه العامل الوحيد الذي يفسر لنا تاريخ الحياة على هذه الأرض، إن أسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو وحده الذي يعين الصفة العامة بكل التحولات الاجتماعية والروحية في حياة البشر، وبتغير أساليب الإنتاج تتغير جميع العلاقات الاجتماعية.

---

(١) المذاهب السياسية، د/ مصطفى الخشاب ص ١١٦.

ونحن لا ننكر ولا يستطيع أحد أن ينكر قيمة العامل الاقتصادي وأثره في حياة الناس، ولكننا ننكر أن يكون هذا العامل وحده هو أساس الحياة من ألفها إلى يائها، أو أنه العامل الوحيد الذي يفسر لنا تاريخ البشرية في كل مراحلها كما يزعم الماركسيون.

لقد أخطأ ماركس كما أخطأ سابقوه وكما يخطئ لاحقوه في الاعتماد على سبب واحد يجعلونه هو المسئول عن كل أحداث التاريخ.

ولقد تبين لكثير من المفكرين فساد أهم ما قامت عليه آراء كارل ماركس فأخذوا ينقدونها ويحملون على نقاط الضعف والتناقض فيها، وأشهر من حمل لواء هذه الحملة النقدية العالم الألماني (بروتشتين) فقد هاجم ماركس في أهم ما اشتملت عليه فلسفته ولا سيما نظرياته في فائض القيمة، وأثبت فساد ما يذهب إليه ماركس من سيادة العوامل الاقتصادية وتحكمها في التطور الاجتماعي[1].

٣-الاشتراكية الفرنسية :

لعبت الاشتراكية الفرنسية دوراً بارزاً في تلوين أفكار ماركس تلك الاشتراكية التي ظهرت تباشيرها في الاتجاهات المادية للقرن الثامن عشر، ووجدت الماركسية فيها ما تأثرت به وأثرت به في تيارها وأفكارها الثورية في تعاليم أمثال "دولباخ" و "هلفيتوس" من أعلام المادية

---

(١) المذاهب السياسية، د/ مصطفى الخشاب ص ١٢٣.

الفرنسية، وإن لم يكن هؤلاء أنفسهم اشتراكيين خُلّصا إلا أن تعاليمهم كانت حافلة بنظريات اجتماعية لها خطرها حيث اعتبرت الإنسان عائناً طبيعية يرتبط بمجتمعه أوثق ارتباط فيتأثر به ويؤثر فيه ويلتزم نحوه بواجبات طبيعية وينال حقوقاً مثلها(١).

هذه الاتجاهات والتيارات الفكرية كانت ذات تأثير لا بأس به في أفكار الماركسية وبناء اتجاهاتها الفكرية، وفي هذا يقول صاحب كتاب (تهافت الفكر الماركسي): يقول الماركسيون إنهم استمدوا مذهبهم من المصادر الفكرية الثلاثة التي كانت سائدة في أوربا في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر وهي: الفلسفة الألمانية في جانبها المادي وفي الجانب المثالي ممثلاً في فلسفة (هيجل) وخاصة منهجه الجدلي والاقتصاد السياسي الإنجليزي، والاشتراكية الفرنسية(٢).

أهم القضايا والأفكار التي نادت بها الماركسية :

عرفنا أن النظرية الماركسية تقوم على مبدأ القول بالمادية، وبناء على هذا وضع الماركسيون آراءهم وأفكارهم في مجال العقائد والأخلاق والاقتصاد والسياسة والاجتماع، وبالجملة فيما يتعلق بالإنسان فرداً ومجتمعاً هذا وقد أدت المادية الجدلية والتاريخية إلى العديد من المعتقدات الماركسية نجملها فيما يلي:

---

(١) الماركسية بين الدين والعلم ص ٥١.

(٢) تهافت الفكر الماركسي، د/ صلاح عبد العليم ص ٢٨، ط/ دار الطباعة المحمدية.

١- إنكار وجود الله تعالى، وإنكار وجود الـــروح الإنســانية وســائر الغيبيات وما وراء المادة، كـــالبعث والجنــة والنـــار والحساب والجزاء.. إلخ.

٢- تجاهلهم للأديان ومعاداتهم لها وزعمهم بأن الدين خرافة وأنه مخدر وصارف عن الإنتاج.

٣- تجاهلهم للقيم والأخلاق التي مرجعها الأوامر الإلهية أو الضمـــير الإنساني، واعترافهم بالأخلاق التي تتبع من المصلحة والمنفعة التي تحقق الأهداف الشيوعية وحدها.

وسوف نناقش هذه القضايا مناقشة علمية حتى يتسنى لنا دحـــض أقوال الماركسية وبيان زيفها وبطلانها.

أولاً: موقفهم الإلحادي:

تذهب الماركسية إلى أن العالم بطبيعته مادي، ومن أجل ذلك فـهي لا تؤمن إلا بالماديات فقط، وفي هذا يقول ماركس زعيم الشــيوعية، لا إله والحياة مادة، ويقول: هويز أستاذ ماركس زعيم الشـيوعية، لا إلــه والحياة مادة، ويقول هويس أستاذ ماركس : إن الأشياء المادية وحدهـــا هي المحسوسة لنا، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله، فوجودي هو المؤكد وما عداه خرافة وخيال لا أصدقه.

ويقول "فردريك انجلز" وهو صديق ماركس وأحد أعوانه: لا وجود لله[١].

هذه أقوال زعماء الماركسية في إلحادهم وإنكارهم لوجود الله، تعال الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومعنى ذلك أن كارل ماركس وأتباعه لا يؤمنون بالله رباً، بل ولا يعترفون بهذا الرب، إنهم ينكرون وجوده.

وهنا يأتي سؤال: من الذي أوجد هذا الكون؟ ومن الذي خلق هذه الموجودات التي نراها ونشاهدها؟ بل من الذي خلقنا نحن البشر؟.

إن الدعوى التي نادى بها ماركس تتصادم مع الفطرة الإنسانية وتلغي أهم غريزة في البشر وأعني بها غريزة التدين، فالإنسان يولد وبه إيمان فطري بوجود قوة خفية تسطير عليه وعلى الحياة من حوله قوة يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها في حياته، وما أكثر الأدلة التي نشاهدها في هذا العالم وكلها تنطق بوجود إله قادر عظيم.

والناس يجتمعون على ذلك مهما اختلفت عقائدهم يقول الحق تبارك وتعالى: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله}.

لقد أدرك الإنسان منذ وجد أن في كيانه قوة مطلقة من القيود – قيود الزمان وحدود المكان – تعمل دائماً في يقظته وفي منامه وفي

---

(١) الشيوعية والأديان، طارق حجي ص ٧١.

قريب المكان وبعيده، وتلقي إليه على غير استدعاء منه صوارً لا تنتهي من الخيالات والرؤى والأحلام، وتعيد إليه كثيراً من ذكريات الماضي وكأنها وليدة يومها أو ساعتها، هذه القوة هي الروح التي تمنح الإنسان حركة وحياة فإذا انسلخت منه فلا حركة ولا حياة[١].

كيف تعمل هذه الروح؟ وكيف يؤدي كل عضو من أعضائها الوظيفة التي من أجلها قد وجد؟

إننا نقول لماركس وغيره من أوجد هذه الروح؟ وكيف تكون في الجسد؟ وهل وجدت يا ترى من نفسها؟ أو أن صدفة عمياء هي التي كونتها وأوجّدتها؟ وجعلتها مظهر حياة وحركة ونشاط؟

أم أن ماركس لا يرى في الروح مظهر قدرة وعظمة إبداع فيكون مع هؤلاء الذين قال الله في شأنهم: {وكأيِّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} وقد يعمى ماركس وأتباعه عن رؤية الروح وما فيها من إعجاز وذلك للطافتها وعدم مشاهدتها حيث لا يؤمن إلا بالمشاهد والمحسوس.

ولكن ألم ير السماء ويشاهد الأرض؟ وينظر إلى القمر؟ ويتطلع إلى النجوم إننا لو نظرنا إلى ما يسود الكون الفسيح من دقة ونظام وما يحكمه من قوانين ثم اتجاهها جميعاً إلى غاية واحدة لأدركنا أنه لم ينشأ صدفة، وأن وراء خلقه وتقنينه قوة عليا دفعته وترعاه، فعالم الكواكب

---

(١) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ص٢٢، والفكر الماركسي في ميزان الإسلام ص ١١٠.

الرهيب يسبح في الفضاء، وتسير أجرامه بسرعة مذهلة لا تتخلف عن دورانها أو تتصادم رغم اختلافها، ثم العلاقة العجيبة بين نور الشمس وإمداد العالم كله بالطاقة والحياة، ثم العلاقة بين هذا كله وبين الإنسان من ناحية والكائنات من ناحية أخرى، فالشمس تغمر بأضوائها النبات فتتم عملية التمثيل فيلتقط النبات ثاني أكسيد الكربون من الهواء ويرد إليه الأوكسجين ليتم تبادل أسباب الحياة بين الحيوانات والنباتات والإنسان[١].

وإذا كان ماركس قد عجز عن رفع رأسه إلى السماء وما فيها من قدرة الخالق وإبداع الصانع جل جلاله، فهل نظر إلى ما يحيط به في هذه الأرض؟ وهل شاهد ما فيها من جمال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود، وما بها من معادن ونحاس ثم ما في بطنها من زيت اللهب، وما إلى ذلك مما يحتاج إليه الإنسان في شئون حياته، ثم هل فكر في نفسه كيف وجد ومن أي شيء وجد؟ وهل نظر إلى أعضائه ووظائفها كيف يسمع؟ وكيف تتقبل آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبداً، وكيف يبصر وكيف يشم وكيف يستشعر؟

إن التأمل في هذه الأشياء يوصل الإنسان إلى أن هذه الأعضاء لم تخلق عبثاً ولم توجد صدفة، وإنما وراءها قوة عليا وأن هذا الخلق خلقه الله بحكمة وتدبير، وأن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله، الله سبحانه وتعالى، ويدل على قدرته وعظمته، وصدق الله العظيم إذ يقول:

---

(١) الماركسية بين الدين والعلم ص ١٦٠.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[١].

ثانياً: تجاهلهم الأديان ومعاداتهم لها:

تقوم الماركسية أساساً على أساس مادي صرف، والماركسية كمذهب فلسفي تؤمن بالحس وقيمته في التوجيه هو ضد الدين والعقل معاً والدين في نظر الماركسية أفيون الشعوب ابتدعه الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الشعوب، ومن ثم فالوحي كله خرافة لا أصل له والأنبياء عصابة من الكذبة[٢]. وتبعاً لذلك فهي تنكرت رسالات الرسل أجمعين، وكذلك الكتب المنزلة عليهم والملائكة واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار وكل ما يتعلق بذلك والذي تواتر الرسل في الإخبار به وبيانه تفصيلاً هذا هو الأساس الذي نبتت عليه الشيوعية، ومن هنا لا تجتمع الشيوعية مع أي دين، لأن فكرة وجود قوة غير قوة المادة فكرة مرفوضة عندها، فهي ضد أي فكرة تتحدث عن الأديان، وعلى هذا الأساس تنكر الشيوعية الإسلام والمسيحية واليهودية وأي دين آخر طالما كان يأمر معتنقيه بالإيمان بإله ليس من جنس المادة.

ومن هنا دخلت الماركسية في صراع مع الأديان فأعلنت أن الدين مخدر للشعوب، وأن الوحي الإلهي فكرة خرافية لا أصل لها، والأنبياء

---

(١) سورة فاطر الآية رقم (٣).

(٢) الإسلام في وجه الزحف الأحمر للإمام الغزالي ص ٢١.

عصابة من الكذبة، ولا مكان في الفكر الشيوعي بداهة لصور العبارات، ولا لمعاني الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة كما يقررها الدين[١].

وجملة القول أن الدين في الفكر الماركسي إنما هو تفسير خـاطئ للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية، ولون مـن الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا كل الناس.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل الدين كل الدين، هـو تلـك الصورة المشوهة التي تصورها زعماء الماركسية واختمرت في أذهانهم عن الدين؟

إن ما تقول به الماركسية بأن الدين أفيون الشعوب، هذا الوصـف تبرأ منه الأديان السماوية إن المسكر والمخدر حقا هو مذهـب كـارل ماركس من جميع نواحيه لأنه يرفع عن الضمير شـعوره بالمسئولية ويغريه بالتطاول البذاء على ذوي الأقدار والعظمـاء، ومـن ثـم فـإن الماركسية تروج بين الذين يلقون التبعة عـن أنفسـهم، ويلقـون أوزار الجرائم والرذائل على المجتمع، وتمهد العذر للصوص والجناة والمنافقين بما تتهم به المجتمع من الرياء والظلم، وسـوء التصريـف والتدبـير، وتعطي كل من يشتهي التطاول حجة للتطـاول علـى المحسـودين، أو للتطاول على ما يشاء من المحرمات والمقدسات وما من سبب يغـري بتعاطي المخدرات والمسكرات إلا كان من المغريات الماركسية على حد

---

(١) انظر الشيوعية والأديان – طارق حجي ص ٢٦.

سواء فحيث توجد الأسباب للإقبال على السكر توجد الأسباب للإيمـــان بالشيوعية على السواء[١].

وإذا انتفى عن الدين أنه مخدر، فإنه ينتفي بالتالي كل النتائج التـي رتبتها الماركسية على هذه الصفة.

وعمل الماركسية هذا مسخ للفكرة الإنسانية التي فطر الله النـــاس عليها وهدم لأعظم ما عرفته البشرية في مسيرتها على ظـــهر الأرض، وجناية خطيرة على القيم والأخلاق بتعطيل أكبر مولد للطاقة الدافعة إلى الخير في حياة البشرية ألا وهو الدين.

وهكذا نرى الماركسيين يتجاهلون أن الدين ظاهرة اجتماعيـــة لـم يخل منها مجتمع من المجتمعات مهما كان شـــكله ودرجـــة تعقيـــده أو تطوره من الناحية الاجتماعية والحضرية حتى أن الإنسان يوصف فـــي علم الاجتماع بأنه حيوان متدين، حيث لم يعش إنسان فوق تلـــك الأرض وكان بغير دين، فكما أن الاجتماع الإنساني ضرورة للإنســـان، كذلـــك الدين ضرورة قصوى لكل إنسان، فمما لا شك فيه أن الإنسان كلمة تدين كلما عاش حياة آمنة مطمئنة، وكلما قل تدينه كلما امتلأت حياته بـــالقلق والخوف والاكتئاب وعدم الأمانة[٢].

---

(١) الشيوعية والإنسانية ص ١٧٧، وانظر كذلك أفيون الشعوب للعقاد ص ٦.

(٢) أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي – دراسة مقارنة – د/ زيدان عبد البـــاقي ص ٥٢.

ثالثاً: موقف الماركسية من الأخـــلاق:

إذا كانت الماركسية لا تؤمن إلا بالمادة كما رأينا، فقد تنكرت للإله ولم تؤمن به وعليه فقد تنكرت للأديان عامـــة وللإســـلام علـــى وجـــه الخصوص وقد ترتب على ذلك تنكرها للقيم والأخلاق، فالماركســـية لا تؤمن بشيء من الأخلاق التي تعارفت عليها الإنسانية قديمـــاً وحديثـــاً، وتنكر كل الأخلاق والفضائل التي أمرت بها الأديان، وجاءت على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

يقول إنجلز : إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخـــير مـــن خلق الظروف الاقتصادية. ويقول (لينين) في خطابه الـــذي ألقـــاه فـــي المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر سنة ١٩٢٠:

"إننا ننكر بشدة جميع الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقـــات وراء الطبيعة غير الإنسان، والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمـــال لصـــالح الاستعمار والإقطاع، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هـــو الحفـــاظ علـــى الجهود الطبقية البروليتارية[١].

نحن ننكر كل أخلاق لا يكون مصدرها المدارك الإنسانية، ونجـــاهر بأنها جميعاً مجرد غش وخداع، إن القوة التي تسيطر على أخلاقنـــا هـــي مصلحة طائفتنا، فدستور أخلاقنا مستمد من حركة كفاحنا العمالية[٢].

---

(١) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ص ٢٨.

(٢) الإسلام والشيوعية ص ٣٥.

ويقول ماركس: الشيوعيون لا يبشرون بأية أخلاق على الإطلاق إنهم لا يضعون للناس الأمر الخلقي، أحبوا بعضكم البعض، لا تكونوا أنانيين..إلخ، بل بالعكس إنهم يعرفون تماماً أن الأنانية مثل التضحية هي في ظل ظروف معينة الشكل الضروري لصراع الفرد من أجل البقاء[١].

من هذه النصوص يتضح لنا أنه لا يوجد في قاموس الماركسية شيء من الأخلاق التي تعارفت عليها الإنسانية، وحافظت عليها وعملت على نشرها، وإنما الأخلاق الشيوعية تتبع من المصلحة والمنفعة التي تحقق أهداف الشيوعية، وليس مرجعها الأوامر الإلهية أو الضمير الإنساني فليس في تعاليم الماركسية إلا جميع الرذائل والمفاسد، فلا بأس عندهم من القتل وسفك الدماء والكذب، وإثارة الفتن والدسائس، والتخريب والإباحية ما دام ذلك يقودهم إلى ما يحلمون به من المجتمع الشيوعي الذي لا طبقية فيه.

وإذا كان لنا من تعقيب على النظرة الماركسية إلى الأخلاق فليس لنا ولا لأي إنسان إلا أن يقول: أنها هبوط بالإنسان إلى درك الحيوان ودعوة سافرة إلى النزعة السوفسطائية في الأخلاق التي لا تؤمن بالقيم المطلقة، ولا ترى مقياساً للخير والشر والفضيلة والرذيلة إلا المقياس الفردي الذي يختلف باختلاف الأشخاص، ومن ثم باختلاف الزمان

---

(١) المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز القسم الأول ص ٢٢٧.

والمكان، إنها في الحقيقة دعوة إلى أخلاق الغابة وسلوك الوحوش، وهي ينتظر غير هذا من فكر يقوم على الإلحاد ويكفر بالله والأنبياء؟.

إن الماركسية تنكر الأخلاق والفضائل والمثل العليا التي أمرت بها الأديان، وجاء بها الوحي، ودعا إليها الأنبياء يقول النبي، صلى الله عليه وسلم، "إنما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارم الأخلاق".

ومما لا شك فيه أن الأساليب الشيوعية تتخذ من أسسها الغاية تبرر الوسيلة، وهذا وحده أعظم برهان على أن الانحطاط الخلقي عندهم شيء هام، بل ومعترف به رسمياً وأنه القاعدة[١].

ومن ثم فالشيوعية تبارك كل أنواع الخداع والغش والاحتيال والكذب ويكرهون أسمى الفضائل الإنسانية كالرحمة والشفقة والعطف وحب الجار والصدق والأمانة والوفاء.

وعلى هذا فالأخلاق عندهم ليست حقيقة موضوعية، ولا قيمة ذاتية، وإنما هي نتيجة التفاعلات الاقتصادية في المجتمع، فإذا تغيرت علاقات الإنتاج تغيرت معها القيم الأخلاقية، وليس هنا مقياس ثابت تقاس به الأمور، والمثل العليا هي أوهام الجائعين والمحرومين الذين حرمتهم الأحوال الاقتصادية من حاجاتهم فراحوا يحلمون بها، فهي إذن نتاج ضار بالمجتمع لم ينشأ إلا من سوء الأحوال الاقتصادية.

---

(١) الإسلام والشيوعية ص ٣٥.

الأسباب التي أدت إلى سقوط الماركسية:

عرفنا فيما سبق أن الماركسية نادت بكثير من الأفكار والنظريات الفلسفية فهل نجحت في الوصول إلى تحقيق أهدافها وهل تطابقت هذه القضايا والأفكار مع الواقع؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن التطبيق العملي للنظريات الماركسية قد أظهر سلبيات كثيرة مما جعلها بعيدة عن الحقيقة والواقع، وسنتناول أهم الجوانب السلبية التي ظهرت عند التطبيق العملي للنظرية الماركسية مما جعل البنية الأساسية لتلك النظرية تنهار تماماً في عصرنا الحاضر وعوامل فشل الماركسية كثيرة ومتعددة يمكن لنا أن نذكرها فيما يلي:

أولاً: تصادم النظرية الماركسية مع الواقع في جوهرها ومضمونها:

ضحى الشعب السوفييتي بأهم مقومات الحياة المعنوية والروحية التي تميز الإنسان عن الحيوان، وهي الدين، والحرية الشخصية والملكية الفردية مقابل وعود معسولة بجنة أرضية تزيل النص والتعب، ولا يصاب فيها الإنسان بمخمصة ولا عري، فهل يا ترى حققت الشيوعية تلك الجنة لشعوبها؟ وماذا فعلت الشيوعية بالعامل الذي تدعي أنها قامت لإنصافه وتخليصه من الظلم؟.

لقد ملأت الشيوعية الدنيا صياحاً بالشعارات الزائفة حول العمل والعمال، وسمت نفسها زوراً وبهتاناً باسم حكومة العمال، فماذا جنى العامل عندما طبقت عليه النظم الشيوعية ؟.

لنستمع إلى الحقائق الآتية:

١- في ١٩٣٠/١٠/١١ صدر مرسوم ينص على أن العامل يجب أن يقبل أي عمل يعهد إليه في أي بلد وفي أي مكان.

٢- في ١٩٣٠/٩/٢٤، ١٩٣٠/١٠/٩، ١٩٤٠/٨/١٠ صدرت المراسيم تحرم على العامل أن يتخلى من تلقاء نفسه عن أي عمل يسند إليه وإلا فإنه يعد هاربا ويحكم عليه بأن يقضي عشرة أعوام في معسكرات العمل الإجباري.

٣- في ١٩٣٢/١٢/١٦، ١٩٤٠/٦/٢٦ صدر مرسومان ينصان على أن العامل إذا غاب يوماً واحداً أو تكرر تأخره عن مواعيد العمل ثلاث مرات في شهر واحد فإنه يفصل من عمله، ويحرم من بطاقة الاتحاد المثبتة لمهنته والتي تعطيه حق السكن والغذاء – ويتعرض للحكم عليه بالسجن مدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة.

٤- وينص المرسومان الصادرات في أول يونيو سنة ١٩٣٢، ٢ يونيو سنة ١٩٤٢ على أن العمال مسئولون مالياً عن أي ضرر يحل بالمصنع وبالأدوات، وبحسب تقدير مدير المصنع فقط، وقد يصل ما يقتطع من أجر العامل إلى عشرة أمثال ما ضيع أو أتلف.

٥- وينص القانون السوفييتي الأعلى الصادر في ١٩٤٠/٦/٢٦ على أن من حق المدير أن يفرض عقوبة السجن على العامل لمدة أربعة شهور دون تحقيق أو محاكمة[١].

---

(١) حقيقة الشيوعية ص ٣٦.

لقد زعمت الشيوعية أنها ثورة للعامل، باسمه قامت ولإنصافه أسست دساتيرها التي راعت فيها – في المقام الأول – حقوقه وحمايته من الاستغلال والاستعباد، ولكنها كلفت نفسها العنت بدعواها هذه حين خرجت من مبادئها من حيز النظر إلى حيز التطبيق فإذا بها لم تنصف أحداً سوى عصابة الحزب الشيوعي، وإذا بنارها التي اشتعلت لتحرق العالم بأسره – إلا إياها – تحرق أول ما تحرق هذه الطبقة الكادحة، العاملة الناصبة التي أوهمتها أنها قامت لنصرتها.

لقد تلقى العمال من الشيوعية – التي قالت إن لحمتها وسداها خالصاً لهم – ما لم يلقوه من الرأسمالية المتجبرة في القرن التاسع عشر في أوربا يقول الدكتور/ محمد البهي وهو يوضح هذا المعنى ويبين أن الرأسمالية الأوربية في القرن التاسع عشر كانت أرأف بالعمال من الشيوعية التي زعمت أنها قامت لتأسو جراحهم، وأنها لا تقل أنانية عن الرأسمالية فيقول:

"والمجتمع الأوربي على عصر الثورة الصناعية يوم أن حسم الفجوة بين أصحاب رؤوس الأموال من جانب وعمال المصانع من جانب آخر كان يسلك مسلك الأنانية في التحيز لمجموعة من أفراده هي مجموعة أصحاب رؤوس الأموال ضد مجموعة أخرى فيه وهو مجموعة العمال والماركسية اللينينية عندما تقترح علاج هذه الفجوة فيما تدعو إليه من تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق إلغاء الملكية الفردية تسلك كذلك مسلك الأنانية والتحيز لفريق من أفراد المجتمع وهم العمال

دون فريق آخر وهم أصحاب رؤوس الأموال، وإذا الرأسمالية أنانية والماركسية اللينينية أنانية أيضاً، والفرق بين طريقتهما أن الفريق الذي يتحيز له المجتمع في النظام الرأسمالي غير الفريق الذي يتحيز له المجتمع الماركسي، وإذا كان العمال في المجتمع الرأسمالي هم الضعفاء والمستذلون فإن الأقوياء والمفكرين في النظام الماركسي اللينيني هم أولئك الضعفاء والمستذلون[١].

كما يبين أنه رغم مرور أكثر من خمسين عاماً على قيام الثورة الحمراء في روسيا فإن العامل لا زال على كدحه ونصبه فيقول:

إن ثورة لينين في سنة ١٩١٧م رأت في إلغاء الملكية الخاصة أقوى أسلوب لفرض الطاعة وتأمين الحكم، ولكن لم تر فيه تطوراً اقتصادياً يحقق العدالة الاجتماعية للطبقة الكادحة، إذ لم يزل العامل في تطبيق النظام الماركسي اللينيني – وقد مر أكثر من خمسين عاماً الآن على الثورة الحمراء – هو العامل المسخر المغبون في أجره وفي توفير الخدمات الاجتماعية له، ولأن أجره لا يمكنه من الإنفاق على غيره ولو زوجته[٢].

بعد هذا البيان الواضح لموقف الشيوعية من الإنسان بصفة عامة ومن العمال بصفة خاصة، نستطيع أن نقول بأن أبواق الشيوعية تطلق

---

(١) تهافت الفكر المادي التاريخي بين النظر والتطبيق – د/ محمد البهي ص ١٨.

(٢) تهافت الفكر المادي التاريخي بين النظر والتطبيق ص ١٨.

قدراً كبيراً من الدعايات المضللة لإيهام الشعوب بأن نظامها بديع لم يسبق له مثيل، وهو نظام تجد البشرية فيه كل ما تصبو إليه نفسها من حرية وكرامة ورزق موفور.

ونستطيع أن نقرر في شيء من الرؤية في التفكير وهدوء النفس أن هذا نظام فاسد جائر لا ينصف الفقير الذي يتباكى من أجله قادة الفكر الشيوعي في كل مناسبة وفي كل مكان، بل تزيد في بلواه، ويزيد من صعوبة هذا الأمر وذلك لعدة أسباب منها:

أولاً: لأنه وإن قضى على أصحاب رؤوس الأموال الباذخين وأذلهم بالاستيلاء على أموالهم، فقد وضعها في يد متمول واحد مجرد من المشاعر الإنسانية الرقيقة، والعواطف النبيلة، فلا رأفة عنده، ولا مواصاة ولا تقدير هذا المتمول هو الحكومة الشيوعية التي تستخدم الأفراد بمثل ما يستخدم الإنسان الآلات الميكانيكية الصماء، وتوزع بينهم أسباب المعيشة بغاية من القسوة والاستبداد وفق ما تسنه من نظم نافذة المفعول.

ثانياً: لأنه قضى على روح الطموح في نفوس عموم الطبقات، وجعلها تظل تشعر بأنها حكم عليها أن تظل أجيرة مستعبدة إلى الأبد.

ثالثاً: لأنه يقتل في الإنسان روح الجد والاجتهاد والرغبة في العمل ويؤدي إلى تقاعس الأفراد في أداء الواجبات.

رابعاً: لأن هذا النظام من شأنه أن يصطدم مع أساس الفكرة التي فطر الله

الناس عليها، ويخالف السنن الكونية التي وضعها الله للحياة، ومن أجلها سن التفاضل في جميع مخلوقاته لا في الحيوان فقط بل وحتى في الثمار التي تخرج من شجرة واحدة وتُسقى من ماء واحد فمنها ما يكون حلواً ومنها ما يكون حامضاً، ومنها ما يكون كبيراً ومنها ما يكون صغيراً، وكذلك الأخوة الذين يخرجون من بطن واحدة ومن أب واحد، منهم من يكون طويلاً ومنهم من يكون قصيراً، ومنهم من يكون أبيض ومنهم من يكون أسود، ومنهم من يكون ذكياً ومنهم من يكون بليداً فكيف يمكن توحيدهم في العمل.

خامساً: لأنه من شأنه أن يكبت في النفوس عواطف الحب ويقلم أظافرها ويقضي على أسبابها ودواعيها، وذلك لأن الله تعالى الذي وضع في النفوس محبة الأهل والأولاد والزوجات جعل من المادة وسيلة لتقوية هذه العواطف وزيادة الألفة والاحترام بما يبذله الرجل في هذا السبيل من الأموال التي إن حرم منها وجدها الأولاد والزوجة من غيره ضعفت محبتهم له، بل وفقد معها ماله عندهم من مكانة وتقدير.

سادساً: لأنه سوى بين الناس تسوية لا يقرها العقل ولا يسلـ الضمير، حيث جعل الخامل متهدم القوى مساوياً ومماثلاً لـ الهمة العالية والنفس الوثابة إلى الخير والسعادة[١].

(١) نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام، ماهر خليل ص ٥٩ وما بـ

ثانياً: أخطأت الماركسية حين اعتمدت في حركة التقدم والتطور علـى العامل الاقتصادي فقط وإهمال ما عداه من العوامل الأخرى:

من أبرز أخطاء الماركسية القول بالجبرية الاقتصادية الكاملة التي لا اختيار للإنسان أمامها، وعلى حسب مذهب ماركس فإن مشاعر الناس تجيء دائماً لاحقه للعوامل الاقتصادية متأثرة بها، ولكنها لا تكون أبـداً سابقة عليها أو مؤثرة فيها.

ويقوم الاقتصاد الماركسي على أساس تحقيق الوفرة في الإنتـاج بحيث يكفي جميع حاجات الناس شأن الهواء والماء ومن ثم فإن أسـاس التوزيع الشيوعي هو الحاجة فالكل تبعاً لحاجته، ويعلق الدكتور/ علـي البارودي على ظاهرة وجود مليونيرات في الاتحاد السوفييتي بقوله: قـد لا يكون وجود أصحاب الملايين غريباً في دولة قوية حديثـة متقدمـة اقتصادياً كالاتحاد السوفييتي، ولكن الغريب أن تتكـون هـذه الملاييـن استناداً إلى القدرة البشرية كفاءة العمل وحدهما على النحو الذي تؤكـده الأيديولوجية السوفييتية[١].

ونحن لا ننكر أهمية الاقتصاد ولا سيطرته على المشاعر البشـرية والوعي الاجتماعي، وتؤمن بأهميته البالغة كمقوم من مقومـات الحيـاة الأساسية إننا لا ننكر ذلك، وإنما الذي ننكره هو القول بحتميـة العمـل

---

(١) دروس في الاشتراكية العربية – د/ علي البارودي ص ١٤٨ – ط/ منشأة المعـارف بالإسكندرية ١٩٦٦.

الاقتصادي وجبريته وجعله العمل الوحيد المسيطر على دنيا البشر، وأقرب ما يرد به على الزعم الماركسي القائل بأن وسائل الإنتاج هي التي تكيف المجتمع، إن وسائل الإنتاج في أمريكا الرأسمالية هي نفسها وسائل الإنتاج في روسيا الشيوعية، ومع ذلك فإن استخدامها في روسيا لم يفوض عليها أن تكون رأسمالية، بل أنها لم تبدأ في استخدام هذه الوسائل على أوسع نطاق إلا بعد أن تحولت إلى الشيوعية، فليس أسلوب الإنتاج إذن قوة جبرية تشكل حركة الإنسان وتخضعه لسلطانها القاهر[١].

إن القول بأن العامل الاقتصادي وحده هو الذي يحدث كل التغيرات التاريخية ويوجه المجتمع ويؤثر فيه، قول ساقط من الناحية العلمية، فقد أثبت بطلان هذا القول مجافاته للعلم كثير من المؤرخين والاقتصاديين، ونذكر من هؤلاء (ماكس فيبر) في كتابه البحوث الدينية والاجتماعية حيث نقض الإدعاء الماركسي بأن الاقتصاد أساس الحياة الإنسانية في جميع اتجاهاتها الفكرية والنفسية والاجتماعية والمادية بالوقائع التالية:

أ- أن الدين عند الهنود والصينيين واليهود لم يقم على أساس اقتصادي كما يحاول ماركس أن يشرح كل شيء في الوجود – حتى الدين والأخلاق والفكر – من الاقتصاد، ولكن الفكرة الدينية وحدها في هذه الأديان الثلاثة هي التي حددت البناء الاجتماعي لشعوب هذه الأديان.

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام – محمد قطب ص ٥٩ – ط / الشروق.

ب-أن التفكير الكنسي كان له تأثير على المجتمع الاقتصادي في القرون الوسطى.

ج-هل يمكن أن تكون الحقائق الرياضية والمنطقية تابعة لأسس مادية أو للاقتصاد؟

أليست هذه الحقائق هي في كل وقت وفي كل الظروف[١]. ثم إذا كان الاقتصاد هو المؤثر الوحيد في كل أحداث التاريخ، وأنه لا إرادة للإنسان بإزاء هذا العامل، فكيف تمكن ماركس – وليد النظام الرأسمالي – أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره؟

هل صعد القمر لكي يبحث في أحوال الأرض[٢].

إن الرأي العلمي السائد الآن في ميدان الظواهر الاجتماعية أنه لا يوجد سبب واحد مستقل وفاعل، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر في بعضها تأثيرات متقابلة.

ثالثاً: الحجر على العقول وطمس معالم الفكر:

من الأسباب التي أدت إلى سقوط الماركسية ورفض مبادئها، ما قامت به الماركسية من الحجر على الفكر وطمس العقل بحيث وضعت التفكير الإنساني تحت الوصاية، فلا فكر ولا ابتكار ولا تجديد إلا في الحدود المرسومة المحددة التي تخدم مصالح الشيوعية.

---

(١) العلمانية والإسلام – د/ محمد البهي ص ٢٦.

(٢) الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان ص ٣٦.

وهذه شهادة رجل عاش في موسكو ثلاث سنوات ملحقاً بالسفارة المصرية يقول: من التعليمات التي يجب على المفكرين والكتاب أن يتبعوها، وعلى الأرباب وذوي الرأي والمفكرين أن يدققوا النظر فيما يكتبون لئلا تفلت منهم عبارة تعرض صاحبها لتهمة نقد الدولة ومخالفة تعاليمها الشيوعية، وذلك وحده كاف لأن يطبق عليه قانون الخيانة العظمى والعقوبة المفروضة لهذا العصيان معلومة وهي على أي حال لا تقل عن الإعدام[١].

ولذلك فإن الحرية في المجتمع الشيوعي غير قائمة إلا بالنسبة لفئة محدودة من الشعب السوفييتي، أما بقية الأفراد فإنهم يعيشون داخل نظام حديدي لا يتيح لها الحق في القول أو الاجتماع أو الكتابة أو الاحتجاج بأي صورة من الصور على أي نوع من أنواع الظلم ومن يعترض على ذلك فإن هناك مجاهل سيبيريا أو المصحات النفسية يلقى فيها بل إنه يحرم على الإطلاق حق الاضراب الذي يتاح في المجتمعات الرأسمالية من أجل تحقيق مصالح المضربين، ومن ثم فقد تحول بقية أفراد الشعب إلى جيش من العاملين في خدمة الحزب الشيوعي ولتحقيق امتيازاته بحيث انطبق على هذا النظام بحق اسم النظام الحديدي، نظام الخضوع والكبت لأي معارضة والانقياد الأعمى للأوامر بدون مناقشة[٢].

---

(١) الإسلام والشيوعية ص ١١٣ - الأستاذ سيد الناظر - الملحق بالسفارة المصرية بموسكو.

(٢) المجتمع الإسلام والمجتمع الشيوعي - د/ زيدان عبد الباقي ص ١١٦.

وقد بلغ من شدة الرقابة والحد من الحريات وإلغاء شخصية الفرد أن أفراد الأسرة الواحدة لا يأمن أحدهم الآخر ولو كان ابناً أو ولداً، حتى الخدم يعتبرون رقباء على مخدوميهم.

وهكذا نلحظ مدى الحرمان والضياع الذي ينزل بالإنسان في ظل الشيوعية التي تدّعي كذباً أنها عنوان التقدم والمدنية والحرية.

يقول الأستاذ العقاد يكشف عن الطامة الكبرى التي تنزل بالبشوية حين يسيطر على الناس مثل هذه المذاهب الهدامة: لو أن إنساناً أراد أن يقدم على هدم بلدة واحدة فوق أصحابها لكان لزاماً عليه أن يلتمس لها أسباباً أقوى من جميع الأسباب التي سولت لماركس هدم المجتمعات الإنسانية بكل ما فيها على كل من فيها من معارضيه ومخالفيه[١].

وبما أن حرية الكلمة غير متاحة في البلاد الشيوعية، فلذلك يلجأ مواطنوها إلى التعبير على أحاسيسهم بواسطة النكت الفكاهية، ذهب أحد الهنود إلى أوربا الشرقية، ومن النكت التي نشرها في ذكرياته عقب عودته من هذه الزيارة، أن طفلة جاءت إلى مدرستها ذات صباح وقالت لها بفخر إن قطتنا أنجبت ست هريرات وهي كلها شيوعية، تأثرت المدرسة بكلام التلميذة ودعت مفتش التعليم ليأتي ويرى بنفسه التربية العقائدية الجيدة التي يحصل عليها التلاميذ، وحين حضر المفتش بعد أسبوع طلبت المدرسة من التلميذة أن تحكي للمفتش قصة قطتها

---

(١) الشيوعية والإنسانية للعقاد ص ٢٨.

وهريراتها، فقالت: إن القطة وضعت ست هريرات وهي كلها ديمقراطية، فصاحت المدرسة بدهشة في وجه التلميذة وذكرتها بأنها قالت لها قبل أسبوع أن هريراتها كلها شيوعية، وسألتها لماذا تقول – الآن – إن هذه الهريرات ديمقراطية؟ فأجابت التلميذة أن الهريرات قد فتحت أعينهن الآن[١].

ومن هذا يتضح لنا أن أفكار ماركس هي للعمي وأن المؤمن بأفكاره هو الأعمى الذي لا يميز بين الحق والباطل، إن التجربة قد رفضت الماركسية بوضوح، وبدأ التراجع يظهر بوضوح في روسيا وغيرها من البلاد ولم تكتف الشيوعية بالحجر على العقول فقط، بل عملت بكل وسيلة حثيثة على إماتة العقل بل ضياعه، فأباحت الخمر وهي تعلم أنها غول يدمر الطاقة الفكرية في الإنسان، ويحول بينه وبين اليقظة ليعيش دائماً في أوهام السكر وخيالات الفكر لا يستطيع أن يبدي رأياً أو يصلح أمراً وفي محاولتها لصبغ المجتمع بالصبغة الشيوعية فإنها حرمت نشر أي فكر حر لا يتفق مع مبادئها، وأشاعت الأمية بين طبقات الشعب العامل بعد ما حاولت سلب مال أصحاب رؤوس الأموال، ليظل الجميع على ولائهم لها، لقد رأت الشيوعية أن الفكر الحر الطليق يهدي الضال وينبه الغافل، وفي النور يأبى المظلوم الظلم، ويأنف المستعبد من الاستعباد ويعرف الإنسان حقه وعرضه وإنسانيته ولا

---

(١) سقوط الماركسية – وحيد الدين خان – ترجمة ظفر الإسلام خان ص ١٥.

يرضى لها بالضياع، وهذا ما يثير القلاقل أمام الشيوعية التي أرادت من العامل أن يكون كالآلة الصماء لا تعرف كلمة (لا) إلى فمه سبيلاً قط[١].

رابعاً: واقع الحياة الاجتماعية:

واقع الحياة الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي أدى إلى سقوط الماركسية في أقوى معاقلها، فواقع الحياة الاجتماعية في روسيا بشع للغاية لأن الشيوعية تجعل من الإنسان مخلوقاً مسخاً لا يهتم إلا بمطلب الحيوان من طعام وشراب وجنس ومنام، وشعارهم : إنما الدنيا طعام وشراب ومنام.

وقد نتج عن تطبيق النظام الشيوعي تفكك الأسرة، يقول (ستالين) ما دمنا ننكر الأديان، فإننا لا نستطيع أن نأخذ بالآراء القائلة بأن للأسرة قداسة، فكل المقدسات زائفة، ونحن لا نريد أن يكون للأسرة أي نوع من أنواع القداسة، مثلما لا نريد أن يصبح الولاء العائلي عائقاً يحول دون تحقيق أهدافنا[٢].

إن الحياة الأسرية في المجتمع الشيوعي تقوم على أساس التفكك وانعدام الروابط الأسرية وتقضي على الألفة والمودة الخاصة التي تنشأ بين الزوج وزوجته، فليس للزواج مظهره المقدس، كما تباح المعاشرة الجنسية بين الرجال والنساء بدون عقد زواج وترعى الدولة الأطفال الذين يولدون

---

(١) فوق أطلال الماركسية والإلحاد ص ١٢٠ – محمد عبد الله الخطيب – ط/ دار المنار الحديثة.

(٢) النظام الشيوعي – ماهر نسيم ص ٥٠.

من هذه المعاشرة غير المشروعة، كما يبيح المجتمع الشيوعي الإجهاض بحجة أن الشخص حر في بدنه وله أن يفعل ما يشاء[١].

لقد وعدت الشيوعية بنيها بمشايعة الجنس، الحريات الوحيدة المسموح بها هناك هي الحريات الجنسية، فمن لا يستحي يفعل ما يشاء فاختلطت الأنساب وتهدمت الأسر وقل الزواج وكثر الطلاق، بل إن الدولة نفسها لا تشجع الزواج مع أنها أباحت الطلاق وسنت علم ١٩٦٦ قانون مجانية الطلاق، ومما يبعث في النفس التقزز أن صحيفة موسكو المساء (فيدنامو موسكوفا) تنشر كل يوم في صفحتها الأخيرة إعلانات من المحكمة للراغبين في الطلاق والأسباب الداعية لذلك، مما يعد هتكاً مفضوحاً للأسرار العائلية لا يرضى بها أحد حتى بعض فصائل الحيوانات ناهيك عن بني البشر.

أما الأولاد فهم ملك للدولة لأنهم أدوات الإنتاج في المستقبل يربونهم من الصغر على أن أمهم هي الحزب الشيوعي السوفييتي وأبوهم هو زعيم الحزب، ويغرسون في نفوسهم منذ الطفولة مفاهيم الإلحاد ومبادئ الشيوعية، وعلى هذا تختلط الأنساب وتتحطم الأسرة.

ومعنى هذا أن تتفجر الشهوات بلا ضابط ولا نظام، لأن الشيوعية ترى في الزواج قيداً يحد من حريتها في ابتغاء ما تريد من تحطيم لأهم خصائص الإنسان وهو النقاء والطهارة وتتحول المرأة إلى كلأ مباح

---

(١) أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي بتصرف.

للأعين والأيدي وتتحول البشرية إلى حياة الغابة والقطيع، ولا شك أن ذلك يؤدي إلى قلة النسل بل ضياعه.

لقد أدى شيوع الزنا في روسيا إلى مقاومة الحمل من جهة انتشار الأمراض السرية من جهة أخرى.

إن فكرة المشايعة التي قالت بها الماركسية ووصمت بها البشرية ليس عليها دليل من البحث العلمي، أو وقائع التاريخ، وفي هذا الصدد يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي:

"إن نظام الشيوعية المطلقة لم نعثر عليه في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية سواء في ذلك البدائي والمتحضر، فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التي وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلّفته من آثار، أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة، أو علماء القانون، ليس من بين هذه المجتمعات أي مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المطلقة في علاقة الرجال بالنساء، فكان جميع نسائه حقاً مشاعاً لجميع رجاله[١].

خامساً: طغيان الحكومة الشيوعية:

نظام الحكم في روسيا الشيوعية حكم فردي يفرض نفسه على كل شيء ولا يسمح بمعارضة أو انتقاد، ولم تعرف الدنيا في تاريخها

---

(١) كتاب الأسرة والمجتمع – د/ علي عبد الواحد وافي ص ١٢١– والإسلام في وجه الزحف الأحمر ص ٦١.

الطويل حكما ممدود الرهبة يحول البلاد إلى سجن كبير، ويحول أهلها إلى قطعان مسيرة مثل ما عرف في الأمم الشيوعية [١].

والنظام الشيوعي نظام ديكتاتوري استبدادي بشع لم تعرف البشرية له نظيراً، ولا يؤمن هذا النظام بالديمقراطية ولا بالرأي الآخر أيا كان هذا الرأي ولو داخل الحزب الشيوعي نفسه، فالحزب الشيوعي السوفييتي هو الحزب الوحيد الحاكم ولا يسمح لنظام تعدد الأحزاب في الشيوعية ولو في إطارها والحاكم الفعلي رجل فرد هو السكرتير العام للحزب، وبهذه الصفة فإن النظام الشيوعي نظام فردي كما هو واقع الأمر، فقد كان لينين حاكماً فرداً وكذلك من جاءوا بعده، ستالين وخريشوف وبريجينيف وأندرويوف وتشيرنينكو، ولا يجرؤ أحد أن يرفع أصبعه معترضاً على رأي الحاكم الفرد أو مقترحاً شيئاً لا يوافق عليه فإن مصيره العذاب الأليم يقول الشيخ محمد الغزالي : إن الانفراد بالسلطة شيء خطير جداً فإن نشوة السلطة أعتى من نشوة الخمر، وإذا كان المال الواسع يورث الطغيان فإن الاستبداد بالحكم يورث الجبروت والإرهاب[٢].

وما حدث في روسيا يؤكد أن الشيوعية أبشع نظام اجتماعي ظهر في العالم لقد كان المواطنون يعانون من أشد العذاب في الدول الشيوعية وهم يتوقون إلى التخلص من طوق الشيوعية.

فعلى سبيل المثال، استطاع ستالين أن يزج بالآلاف المؤلفة في

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ١٧٣.

(٢) الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص ٩١.

أقبية السجون وكثير منهم كانت لا توجد عليه تهمة ثابتة أو دليل واضح على ارتكابه ما يخل بسلامة الدولة، ومع ذلك كان يلقى عقابه ويعامل أقصى معاملة، وكان الزعماء الروس قد أعلنوا أن تاريخ ستالين لن يكرر في روسيا.

ومن المقطوع به أن الشيوعية في أي بلد وفي أي زمان لا يمكن أن تصل إلى الحكم عن طريق انتخاب شعبي حر، والحكم الشيوعي يعتمد في الداخل على شبكة من الجواسيس تحصي على الناس أنفاسهم، ومن هنا أصبح الشعب غير راض عن هذا كله إلا أنهم لن يستطيعوا التعبير الحر عن آرائهم وفق متطلباتهم، وفي هذا يقول (فكتور كرافتشنكو) أحد الروسيين ممن تقلدوا مناصب قيادية في الحزب الشيوعي، بعد أن عاد من المزارع الجماعية وشاهد ما يعانيه فلاحوها من بأساء وضراء.

بدأت في طوية نفسي وثنايا ضميري فكرة أن أعتزل الحزب، فالمغازع التي شهدتها في الريف تركت في نفسي جروحاً هيهات أن تندمل، وبدأت في طوية نفسي فكرة أن أعتزل الحزب الذي يقع كل من التحق به في الفخ إلى الأبد، فلو كنت أظهرت ما يدور في صدري من عواطف على حقيقتها لكانت النتيجة إبعادي ووصمي بالعار وتعقبي بألوان الاضطهاد، وربما كانت النتيجة المحتومة أن يُزج بي في معسكرات الاعتقال أو ما هو شر من ذلك وبالاً[1].

---

(١) الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص ٦٩.

هذه الوقائع تمثل دليلاً واضحاً على أبواب التعبير الحر عن الرأي مسدودة في البلاد الشيوعية، ولذلك يتجه المعارضون إلى التعبير عن معارضتهم بأساليب غير قانونية[١].

وبطبيعة الحال فإن الكبت يولد الانفجار وهذا ما حدث بالفعل في روسيا الشيوعية مما عجل بسقوطها لبعدها عن الحقيقة والواقع فانهارت الأسس الأساسية التي ترتكز عليها النظرية الماركسية، وبكذب المقدمات تنهار النظرية من أساسها، وهذا ما حدث فعلاً فالنظرية كل يوم يقودها التناقض إلى تناقض أحدّ منه وأعمق وتنتقل من فشل إلى فشل،ومما يؤكد ذلك ما جاء في التقرير الذي تقدم به خروشيف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الروسي (يناير ١٩٥٦) يعني بكل وضوح أن الماركسية قد أخفقت إخفاقاً ذريعاً في دعواها بأنه يمكن إصلاح المجتمع البشري بتغيير أحوال المادية[٢].

سادساً: إفلاس الماركسية:

لم تستطع الماركسية أن تقدم دليلا واحداً على صدق دعواها مما يعد إفلاساً حقيقياً لها، وكان جورباتشيف أول من اعترف على المستوى المحلي والعالمي بالمأزق الذي يعيشه اليوم الاتحاد السوفييتي بعد واحد وسبعين عاماً من التطبيق الماركسي وفي هذا يقول:

---

(١) سقوط الماركسية – وحيد الدين خان ص ١٤٤.

(٢) نفس المصدر ص ١٤٥.

١- هناك حاجة الآن في الاتحاد السوفييتي إلى تفكير سياسي جديد وتسعى القيادة إلى ترجمته إلى عمل، وموسكو في حاجة إلى ظروف دولية طبيعية من أجل علاج قضاياها الداخلية.

٢- تكرر الإخفاق الاقتصادي وبدأت الصعوبات تتراكم والمشاكل التي لا تجد حلولاً تتضاعف.

٣- سادت الشكلية وكذبت الشعارات وحدثت فجوة في المصداقية وصار كل ما يعلن على المنابر وفي الصحف وفي الكتب المدرسية مثار شك، وبدأ الفساد يسري في الأخلاقيات العامة.

٤- علينا أن نضمن رباطاً أكثر قوة ومباشراً لمصالح الأفراد من خلال العقود الجماعية والأسرية حتى نربط مزايا الاقتصاد الجماعي بمصالح الأفراد.

٥- أن أحد المهام الرئيسية تتمثل في إحياء وتعزيز الشعور بالمسئولية وأن نعمل في توازن بين المجالين الاجتماعي والاقتصادي[١].

لقد قامت الشيوعية على أساس الإلحاد، وإنكار وجود الله فألغت الملكية وحاربت الأديان، فهل استطاعت أن تمضي في هذا الشوط من مصادرة الفطرة وإنكار جانب الروح في الإنسان، إن هذه الدعوى لن تلبث أن هُزِمت أمام الحقائق التي لا حيلة للبشر في تغييرها أو تبديلها،

---

(١) فوق أطلال الماركسية والإلحاد ص ٢٢١.

ولقد شهد شاهد من أهلها على صدق ما نقول، يقول (تولستوي) الفيلسوف الروسي الشهير: لقد نبذت تلك العقائد أول الأمر، ووجدتها عديمة المعنى ثم قبلتها الآن وألفيتها مليئة بالمعاني، ذلك لأني كنت مخطئا وأدركت سبب الخطأ، وهذا السبب ليس ناشئاً عن تفكيري السيء فحسب بل لأني عشت في بيئة سيئة، إنني لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله، ولولا أنني كنت أتعلق بأمل غامض في وجود الله لقتلت نفسي من زمان بعيد. إنني أحيا وأحيا حقيقة حينما أحس به أبحث عنه فقط ويصبح من داخلي صوت يقول: عن أي شيء تبحث بعد هذا، هذا هو.. إنه ذلك الذي لا يستطيع المرء بدونه أن يعيش. إنه الله، وعندما اعتقدت في وجود الله اعتقدت في الكمال الخُلقي وفي التقاليد التي تحمل معنى الحياة[١].

هذا ما نطق به فيلسوف روسيان وهو دليل على فشل الشيوعية وإفلاسها التام في محاولتها اليائسة للقضاء على الدين وطمس الإيمان في القلوب ودليل على انهيار دعواهم لا إله والحياة مادة.

هذا وقد ألغيت الشيوعية الملكية فحرمت الملكية الفردية وحلت محلها الملكية الجماعية ولكن لينين أعلن فشل التجربة نتيجة لهبوط الإنتاج الصناعي والزراعي بسبب إلغاء الملكية الفردية، ولم تعترف الشيوعية بنظام الميراث فلا يرث الابن والديه ولا البنت ترث والديها،

---

(١) الإسلام والشيوعية – د/ عبد الحليم محمود ص ١٠٤ وما بعدها.

وهي لا تعترف بالبنوك ولكنها حين واجهت الواقع والتطبيق اصطدمت بفطرة الإنسان الأصيلة ثم حدثت المذابح والأهوال في سبيل تنفيذ قانون إلغاء الملكية، ثم لم تلبث أن تراجعت فسمحت للفلاح أن يملك قطعة من الأرض لا تزيد على فدان، وأباحت أن يبيع محصولها بنفسه، ثم سارت خطوة أخرى متراجعة فأباحت للرجل الروسي أن يبيع بيته إذا شاء وأن ينتقل إلى ورثته من بعده، وأن من حق الأولاد أن يرثوا ما تركه آباؤهم من ثروة، هذا ما جاء في آخر تعديل للدستور السوفييتي وهو مخالف مخالفة صريحة لمبادئ الشيوعية الماركسية، وهو دليل على استحالة تطبيق النظرية لمخالفتها للفطرة التي خلقهم الله عليها، والتي لا يمكن مسخها بقانون[١].

وعلى هذا فقد اتضح خداع الشعارات التي نادت بها الماركسية مما أدى في النهاية إلى سقوطها واستحالة تحقيقها في روسيا وفي غيرها من البلاد التي خدعت بهذه الشعارات الزائفة.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذه السطور، ويجعل منها عملاً صالحاً مقبولاً، إنه سميع قريب مجيب الدعاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



---

(١) نفس المصدر ص ١٠٦.

أهم المراجع

١- الإسلام في وجه الزحف الأحمر – للشيخ محمد الغزالي.

٢- الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان.

٣- الإسلام و الشيوعية – د/ عبد الحليم محمود.

٤- أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي – دراسة مقارنة – د/ زيدان عبد الباقي.

٥- الإنسان بين المادية والإسلام – محمد قطب – ط / دار الشروق.

٦- الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام – د/ عبد الجليل شلبي – ط/ دار الشروق.

٧- الشيوعية والأديان – طارق حجي.

٨- العلمانية والإسلام – د/ محمد البهي – ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

٩- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي – د/ محمد البهي.

١٠- الفكر الماركسي في ميزان الإسلام – د/ محمد رشاد عبد العزيز.

١١- المذاهب والنظم الاشتراكية – د/ محمود البنا – ط/ دار الاتحاد العربي للطباعة.

١٢- الماركسية بين الدين والعلم – د/ جميل محمد أبو العلا – ط/ الأمانة – القاهرة.

١٣- الماركسية تأليف فرديك انجلز – ترجمة ماهر نعيم – ط/ دار المعارف.

١٤- تهافت الفكر الماركسي – د/ صلاح عبد العليم إبراهيم – ط/ دار الطباعة المحمدية – القاهرة.

١٥- تهافت الفكر المادي التاريخي بين النظرية والتطبيق – د/ محمد البهي.

١٦- حقيقة الشيوعية للأستاذ على أدهم – ط/ المكتب المصري الحديث.

١٧- حركات ومذاهب في ميزان الإسلام – للأستاذ / فتحي يكن.

١٨- دروس في الاشتراكية العربية – د/ علي عبد البارودي- ط/ منشأة المعارف.

١٩- سقوط الماركسية –وحيد الدين خان- ترجمة ظفر الإسلام خان – ط/ رابطة الجامعات المصرية.

٢٠- فرديك انجلز حياته وأعماله – إعداد معهد الماركسية اللينينية – ترجمة أسما حليم – نشر دار الثقافة الجديد.

٢١- فوق أطلال الماركسية والإلحاد – محمد عبد الله الخطيب – ط/ دار المنار الحديثة.

٢٢- قيمة الفسلفة الماركسية من خلال رؤية إسلامية – د/ حسن محرم الجويني – ط/ دار الهدى للطباعة.

٢٣- قصة الفلسفة الحديثة –أحمد أمين – وزكي نجيب محمود.

٢٤- مذاهب فكرية معاصرة – محمد قطب – ط/ دار الشروق.

٢٥- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها – د/ عبد الرحمن عميرة –ط/ دار اللواء للنشر.

٢٦- نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام – ماهر خليل – ط/ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.